

سلوى المسافرين وأنتى الغريب والمهاجر



رامي أحمد الجمل

سَلَوَى الْمَسَافِرِ

وَأَنْفَسَ الْغُرَيْبِ وَالْمُهَاجِرِ

رامى أحمد الجمل



TAYF AL-QALAM
PUBLISHING & DISTRIBUTION

طيف القلم للنشر والتوزيع

TAYF AL-QALAM PUBLISHING HOUSE



نشر يثري الفكر
Publishing Enriches Thought

(لا يجوز إعادة نشر هذا الكتاب أو طبعه بغرض بيعه أو الترخيص منه)
للإذن بالطباعة أو النشر تواصل مع المؤلف عبر الرسائل الإلكترونية
Email: BOSTAN.ELQURAAN@GMAIL.COM



نصل للعالم
We Reach the World



جميع الحقوق محفوظة
All rights reserved

أو عن طريق الواتساب: (امسح الباركود على اليمين)

في أي نظام استرجاع، دون إذن خطي من الناشر.

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system,
or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical,
photocopying, recording, or otherwise, without the prior written
permission of the publisher.



ISBN

978-977-12345-6-7



9 789771 234567

رقم الإيداع القانوني
2026/12345

الترقيم الدولي
2026/5678



طيف القلم للنشر والتوزيع
TAYF AL-QALAM PUBLISHING HOUSE



info@tayf-pub.com



www.tayf-pub.com



الطبعة الأولى
First Edition



2026



جميع الحقوق محفوظة
All rights reserved

رقم الإيداع
Deposit Number

2026/12345

نكتب اليوم .. لنرتقي غداً

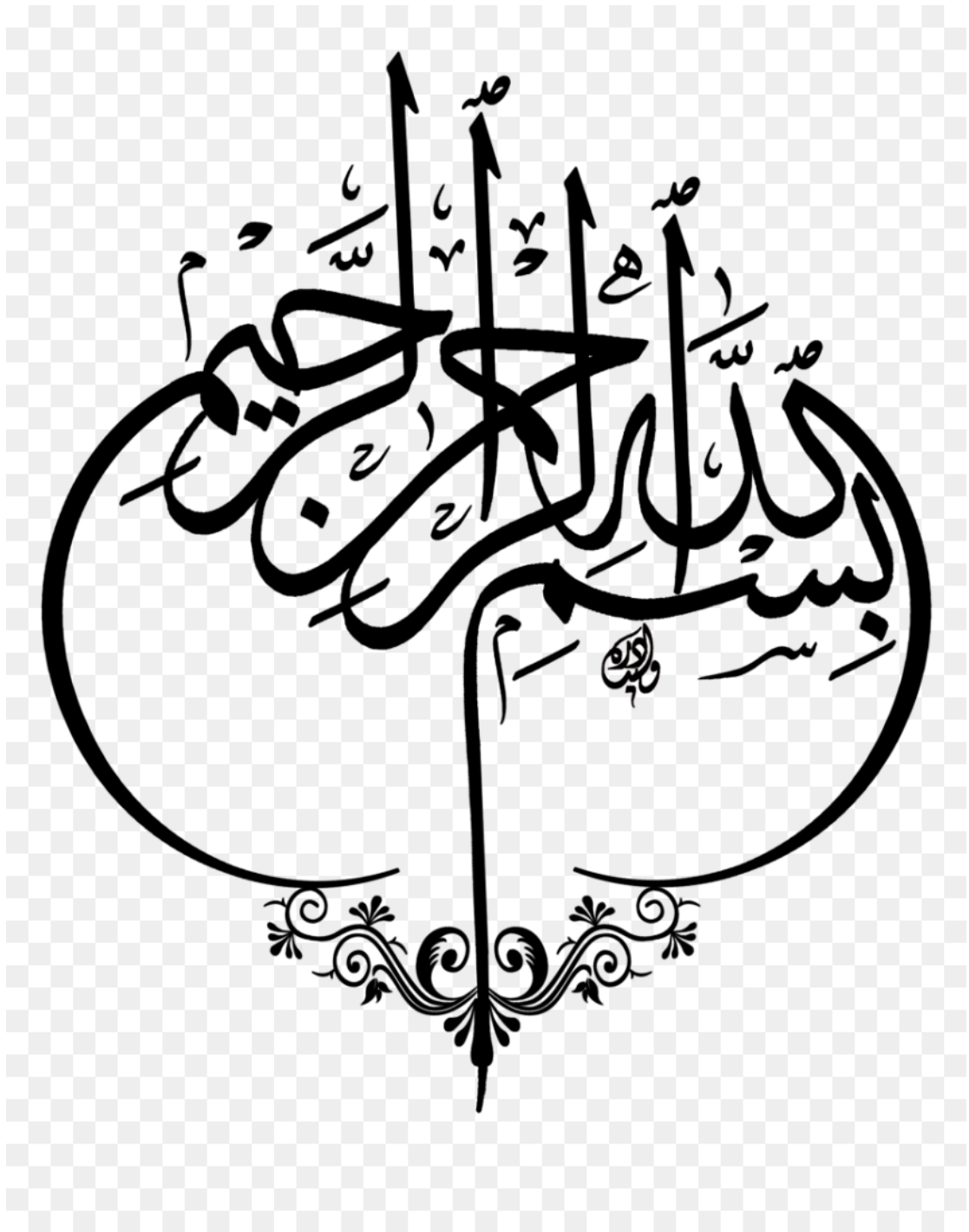
إهداء

إلى أُمِّي وإِخْوَانِي وَأَهْلِي وَوَالِدِي الَّذِينَ تَمَلُّوْا غُرْبِي وَمِرَارَةَ الْوَدَاعِ

كُنْتُ لِي نَعْمَ الْعَوَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَنَعْمَ الْوَدَّ وَالْوَصَالَ فِي غُرْبِي، وَنَعْمَ التَّرْحَامَ عِنْدَ الْفَقْدِ

جَزَاكَمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا وَبَارَكْ فَيْكُمْ وَجَمَعْنَا عَلَيَّ كُلَّ خَيْرٍ وَنِعْمَةٍ وَبُرْكَهٍ وَحَافِيَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَرَحِمَ اللَّهُ وَالِدِي وَخَفَّرَ لَهٗ وَأَكْرَمَهُ كَرَمًا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ جَمَلًا كَرِيمًا وَوَدَّ رَحِيمًا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي فطر القلوب على حبّ الديار، وجعل الحنين شيمةً كلّ حرٍّ مختار، وأشهد
ألا إله إلا الله وحده، شهادةً قائمةً آناء الليل وأطراف النهار، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله، الذي هاجر من مكة والدمعُ في عينيه ينهار، ووقف على ثناياها يُودّعها وقلبه من
لوعة الفراق مُستطار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، الذين خرجوا من ديارهم لله
مهاجرين، فكانوا نجومًا في سماء الغربة مضيئةً للسائرين، أما بعد:

فهذا كتاب «سلوى المسافر وأنسُ الغريب والمهاجر»، صنّفته ليكون ونيسًا في ليل الوحشة
الطويل، وجليساً فيه تسلية الحبيب والخليل، بلسمًا يُضمدُ جراح الحنين، ويُذكي في القلوب
نورَ اليقين، يُبددُ لوعة المشتاق وعلّة العليل، طريقه ممهد لمن أضناه السبيل، جمعه من
مشكاة الهدى والنقل الصحيح، ومن حكم العرب وأمثالهم والبيان الفصيح، ومن قصص
السالفين وحكاياتهم والخبر المليح، ومن أشعار الشعراء وحنينهم والنظم الجريح، جعلته
اثنين وعشرين فصلاً، كل فصل يبتدئ بآية بينة، أو حديث سيد البشر المختار، ثم من
غريب الحكايات والأخبار، ثم تأملات لينة يرق لها قلب الحزين، ثم ختام كل فصل بكلمات
يحملها المسافر لتكون له نوراً في كل حين.

وقد سلكت في كتابته مسلك الرفيق الناصح، لا مسلك الثقليل الفاضح، وجعلت كلماته لينةً
تلامس القلوب برفقٍ وأناة، وألفاظه سهلةً رقيقةً تسري في النفوس سريان الحياة، كتبه بقلب
الغريب عن داره وأوطانه، سطرته ببعض زفرات الحنين وألوانه، فما هو بكتاب وعظ

وتخويف وترهيب، بل هو كتاب تسليية وتلطيف وترغيب، يبكي معك إن بكيت بدافع
الشجن، ويمسح دمعك إن حزنت ويُسَلِّيك عن كل محن، ويأخذ بيدك من لوعة الفراق إلى
سكينة الرضى والطمأنينة، ومن وحشة الطريق إلى أنس اليقين والسكينة.
وإنما أهدي هذا الكتاب إلى كل غريب أضناه الحنينُ وأبكاه، وإلى كل مسافر طواه الليلُ
وأعياه، وإلى كل مهاجر طالت غربته فما عاد يذكر سوى دياره، وإلى كل مشاق أرقته
الذكرى فبات يبكي على جواره، أهديه إليهم جميعاً، ليكون لهم أنيساً في الخلوة، ورفيقاً في
الطريق، وسلوة في الغربة، وأنساً في الوحشة، وجليساً في السفر، وبلسماً في الحضر.
فإن وجدت فيه ما يثلج صدرك، ويُذهب همَّك ويُريح بالك؛ فذاك مطلبي الدقيق، وما جال
في خاطري الرفيق، وإن وجدت فيه غير ذلك فالتمس لي عذراً بقلب رقيق، فإنني كتبه
بقلب يقاسي ما تقاسيه، ولعل غيرك يجد فيه ما يواسيه.

تمهيد الكتاب

اعلم أخي الغريب عن دياره، يا من أخذت هذا الكتاب ونفضت عنه الغبار، وفتحته تستروح منه نسيم الأنس بغريب الأخبار، تطلب فيه سلوى الغربة وتبتغي دواء الوحشة وتنتظر الأسرار، وتنشد فيه عزاء القلب وبلسم الروح وسكينة الدار، اعلم أني قد وضعت على اثنين وعشرين فصلاً مُحكم البنیان، وجعلت كل فصل قائماً بذاته أو ينبني على ما قبله بوضوح وبيان، فإذا قرأته متسلسلاً وجدت نفسك قد خرجت من ضيق الكتابة إلى سعة الرضى والأمان، ومن وحشة الطريق إلى أنس اليقين والإيمان.

وإليك بيان فصوله لتعرف كيف تسير الرحلة:

الجزء الأول: (الجدور ولوعة الفراق) أستقته بـ «حب الديار» لتعلم أن حنينك شرف لا يُضارعه شرف، وأن دمك على أهلك مروءة لا يُنكرها أحدٌ ولا يعفّ، ثم «زفرة الغريب» لأقف معك على أول دمعة في ساعة الوداع، وأريك كيف تحولها إلى نسمة انشراح وانتفاع، ثم الجزء الثاني: (أدوات التكيف وبناء النفس) آخذ بيدك إلى «دثار الليل» ليكون الذكر سلاحك في الظلام، والمناجاة في الدجى مصباحك إلى التمام، ثم إلى «مدارج السائرين» لتفقه منافع السفر في السنن، وتعرف فضل السير في الأرض ورحمة ذي المنن، ثم «التئيل في السير» لتقتدي برحلات الأئمة الأعلام، وتسير على دربهم في العزيمة والأحلام، ثم إلى «خبز الغربة» لتذوق طعم الكسب الحلال وهنائه، وتعيش عز الاستغناء عن سؤال الرجال وضيائه، ثم إلى «مائدة الثقافات» لتأمل وجوه الدنيا المتعددة والألوان، وتجعل من غربتك وليمة ممتدة لكل إنسان، ثم «لغة الغربة» لتتعلم لسان القوم الذي تنزل بينهم، فتأمن مكرهم

وتصير مكرماً بين أهلهم، ثم الجزء الثالث: (معارك النفس ودفء العلاقات) نمضي معاً إلى «دواء الكآبة» لنداوي به هموم النفس والأحزان، ونجلو به غياهب اليأس والأشجان، ثم إلى «ظل الوحدة» لتجنب داء العزلة وسجنها المظلم، ونخرج من ضيق الانفراد إلى سعة الصحبة والنعيم الأعظم، ثم «سند ظهرك» لنبحث عن رفيق الدرب وبلسم التعب والعناء، ونعقد معه أواصر الأخوة في السراء والضراء، ثم «جلس لا يمل» لأنس بالكتاب والدقتر في سفرنا الطويل، وتتخذ منهما رفيقاً لا يخون ولا يغدر ولا يميل، ثم «محراب الذكرى» لنستعيد روائح الدار وألوانها والعهود، ونستدعي طيف الأحبة من رحيق الورود، ثم «بريد الدموع» لنعيش أخبار الأهل من بعيد وما يأتي به البريد، وتلقى رسائل الفرح والحزن بصبر حميد، ثم الجزء الرابع: (التحديات والمسؤوليات) نقف فيه على «دين الغريب» بين توقعات الأهل وحساب الواقع الأليم، وكيف يوازن بين العطاء والامتناع القويم، ثم «غصن في مهب الريح» لحفظ الأهل والولد في ديار الاغتراب والشتات، وتربيتهم على الدين واللسان والآداب والثبات، ثم «عشرة الغريب» لننهض بعد الفشل والخيبة والانكسار، ونجعل من السقطة بداية موهوبة وعبرة لذوي الاعتبار، ثم الجزء الخامس: (دورة الحياة) أختمه بـ «العائدون بالخير» لأريك كيف يصير الغريب رسولاً مُبجلاً، وكيف يحمل إلى أهله علماً وخيراً مؤملاً، ثم «متى العودة؟ وكيف؟» لتسأل نفسك: متى أعود وكيف أعود؟ وأين المقام؟ وتوازن بين حلم العودة وواقعها بغير انفصام، ثم «نسمات العودة» لأبشرك بفرحة اللقاء بعد طول النوى والبعاد، وأصور لك مشهد الوصل وقد جُمع الأحبة بعد طول السهاد، وأخيراً «غريب في الدار» لتقف على الوجه الآخر للعودة وما يخفيه القدر، حين يصير الوطن غربة، وحين يجد

المسافر نفسه دخيلاً بعد أن كان سيدياً في البشر، فتعرف كيف تتقادي هذا المصير،
وكيف تصنع من عودتك دفناً لا نفوراً، وأنساً لا شروداً، ووصلاً لا قطيعة، ثم أختم بقلب
الابن البار «حبّ وامتنان» إلى وطني الأم وسائر الأوطان، رسالة وقية نقيّة.
فاقرأه على مهل، وتأمّله بروية وإمعان، واجعله رفيقك في سفرك وسلوكك، تنتفع به إن شاء
الله، وتجد فيه ما يخفف عنك وعناء الطريق، والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله
خالصاً لوجهه الكريم ويُبارك مسراه، وهو حسبي ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، لا
إله إلا هو.

الفصل الأول

(حب الديار، إيمان الأحرار وشيمة الأخيار)

هذا فصلٌ نُبِّت فيه أن حب الوطن طبعٌ كريمٌ في الصدور، وسجيةٌ شريفةٌ لا تُنكر ولا تُعاب في العصور، بل هي دليلٌ وفاء في القلوب لا يزول، وعلامةٌ خير في النفوس لا يحول، تقرأ فيه من الآيات ما يشرح صدرك ويقويك، ومن الأحاديث ما يثبت فؤادك ويهديك، ومن حكم العرب وأمثالها ما يبهج نفسك ويحييك، ومن قصصهم وأخبارهم ما يبكي عينك ويسليك.

قال الله تبارك وتعالى مقررًا مبدأ حب الديار في القلوب، وجاعلاً الخروج منها قرينًا للقتل في الشدة والكروب: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، تأمل كيف قرن الخروج من الديار بقتل النفس في امتناع القلوب، دلالةً على شدة فراق الأوطان وعظيم وقعها على النفوس وما فيها من لغوب، فإذا كان الله قد ساوى بين مفارقة الديار وقتل النفس في المشقة والألم، فأبي دليل بعد هذا على أن حب الوطن غريزة في دم ابن آدم؟ ولو لم يكن في الشريعة إلا هذه الآية الباهرة، لكفت دليلًا على أن التعلق بالوطن طبع في السرائر، وأن الشريعة جاءت معتبرة هذا الطبع لا ماحية له من الضمائر.

وقال سبحانه أيضًا في وصف الإخراج من الديار بالظلم العظيم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فجعل الإخراج من الديار ظلمًا كبيرًا، وعدوانًا

مبينًا، وخطبًا جسيمًا، ولو لم يكن للديار في النفوس مكانة عالية، لكان الخروج منها هيئًا
لا يُذكر في الآيات المتلوة الباقية.

وفي السنة المطهرة من الشواهد النبوية على حب الوطن ما يثلج الصدر ويشرحه، ويملاً
القلب يقينًا بأن حب الديار ليس ضعفًا ولا منقصة تلمحه، عن عبد الله بن عدي بن حمراء
رضي الله عنه، قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَقْفًا عَلَى الْحَزْرَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ
اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^١.

تأمل هذا المشهد النبوي الجليل، وقد وقف النبي ﷺ على الحزورة يخاطب مكة مخاطبة
الخليل، يقسم لها بالله إنها لخير أرض الله وأحبها إلى الله، ثم يصرح بأنه ما كان ليخرج منها
لولا الإخراج والإكراه، إنه مشهد الحب الكامل الذي لا يبلى، والوفاء الصادق الذي لا يفنى،
والحنين الجارف الذي لا يسلى، فهذا أبلغ بيان على أن حب الوطن في القلوب المؤمنة
سجية، وأن بكاء الغريب على دياره سنة نبوية.

وعن أمنا عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّبْنَا
مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ»^٢، فانظر كيف دعا النبي ﷺ ربه أن يغرّس في قلبه حب المدينة كما يحب
مكة أو أشد، وهذا دليل على أن حب الأوطان نعمة تُطلب من الله وتُسْتَمَد، وأنها منحة
ربانية لا تقص فيها ولا كمد.

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، حديث رقم: ٣٩٢٥، وقال: حسن صحيح

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث رقم: ١٨٨٩

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ حُبًّا لِلْمَدِينَةِ»^١، فانظر كيف كان النبي ﷺ يعجل بالسير إذا لاحت له جدران المدينة، شوقاً إليها وحباً لها ولأهلها وسكينة، أليس هذا شاهداً ناطقاً على أن حب الديار من هدي النبوة، ومن شمائل أهل المروءة؟

فاعلم أخي الغريب، أن: «حب الوطن من الإيمان»، وهي ليست حديثاً ثابتاً عن النبي العدنان، وإنما هي حكمة مأثورة تداولها الناس على الألسنة والأذهان، قال عنها الإمام السخاوي: «لم أقف عليه -أي لم أجده مسنداً عن النبي ﷺ- ومعناه صحيح»، تشهد له الأحاديث الصحيحة والآيات البيّنات، وشواهد الفطرة والعقل في كل الحالات.

وقد قالت العرب في هذا قديماً حكماً وأمثالاً، وجعلتها للغريب في وحدته دليلاً وظلالاً، يقول مثلهم السائر: «الوطنُ أمُّ الرَّجُلِ»، وذلك أن أعرابياً خرج من دياره يطلب رزقاً فتغرب، فأصابته غربة طويلة واغترب، فلما عاد إلى أرض قومه بعد طول التوى، قبل ترابها وانهاه دمه وروى، وقال: «الوطن أم الرجل، يرضع لبان الحب من ترابه، فلا يعوّض بغيره ولا يُستبدل بسواه في شبابه»، فذهبت كلمته مثلاً، ومعناه أن الوطن كالأم في حنانها، لا تعوّض بغيرها ولا تستبدل.

وقالوا: «حُبُّ الْوَطَنِ غَرِيظَةٌ فِي النَّفُوسِ»، يضرّبونه للدلالة على أن حب الديار جبلة لا تصنع، وفطرة لا تطبع، وأصله أن حكيمًا سئل: «علام يحب الناس أوطانهم؟» فقال: «حب الوطن

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث رقم: ١٨٠٢

غريزة في النفوس، لا يُسأل عنها ولا يُحتج لها، فالناس جميعًا محبوبون على ذلك، حتى البهائم العجماوات تحن إلى مراتعها، والطير إلى أوكارها، والأسماك إلى بحارها»، فجرت مثلاً.

وروى الأصمعي رحمه الله قال: «يقول أهل الهند: ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوانات: الابل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدا بها بعيداً، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجذباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر نفعاً»، فتأمل هذه الحكمة الهندية التي نقلها الأصمعي بلفظها، كيف جعلت حب الوطن غريزة مشتركة بين الإنسان والطير والابل في أرضها.

وقالوا: «بليدة الإنسان خير من كورة الغرباء»، يضرب هذا المثل في أن الإنسان وإن عاش في بلد صغير حقير، خير له من بلد عظيم يكون فيه غريباً ذليلاً لا يجد ناصرًا ولا معيناً، وأصله أن رجلاً خرج من بلده يطلب رزقاً في مدينة كبيرة، فوجد فيها الغربة والوحشة، والذل والغصة، فعاد إلى بلده، وقال: «بلدة الإنسان خير من كورة الغرباء»، فجرت مثلاً.

كره الوطن دليل على دناءة النفس وخبث الطبع ولؤم الأصل:

قالوا في ذم من يكره وطنه: «لا خير في امرئ لا يحن إلى وطنه»، يضربونه في ذم من لا يحب وطنه، وجعله دليلاً على خبث الطبع، ولؤم الأصل، وفساد النشأة، وأصله أن رجلاً كان معروفاً بالقدر وسوء الخلق، فسأله سائل: «أتحب وطنك؟» فقال: «لا»، فقيل: «هذا دليل خبثك، فمن لا خير في وطنه عنده، فلا خير فيه عند أحد»، فجرت مثلاً.

وقال ابن خلدون في مقدمته: «حب الوطن طبيعة وغريزة؛ وقد خالف الفطرة من كره وطنه وعاداه وأبغضه»، فانظر كيف جعل حب الوطن طبيعة في البرية، وجعل كراهية الوطن خروجًا عن الفطرة السوية.

وقالوا أيضًا: «مَنْ كَرِهَ وَطَنَهُ فَهُوَ لَيْئِمُ الْأَصْلِ، خَبِيثُ الطَّبَعِ»، وأصله أن فتى من الأعراب كان يشتكي من بلده، ويدّعي أنه يكرهها ويتمنى لو ولد في غيرها، فسمعه شيخ القبيلة فقال: «يا بني، الوطن كالأم، لا تُكره ولا تُعاب، ومن كره وطنه فهو لئيم الأصل، خبيث الطبع، لأن فيه عقوقًا لوطن كان له حاضرًا، ولأرض كانت له مهدًا»، فجرت كلمته مثلاً.

وللعرب في حب أوطانهم والدفاع عنها أخبار عجيبة، وقصص غريبة، تفيض بالعبارة، وتدل على أن هذا الحب يتغلغل في النفوس حتى يصير جزءًا منها.

يُروى أن أعرابيًا خرج من باديته إلى الحاضرة، فأطال المقام فيها، واجتمع له مال كثير، وأصاب جاهًا عريضًا، فسئل ذات يوم: «أتحب العودة إلى باديتك؟» فبكى وقال: «والله إني لأذكر ترابها فتحن عظامي، وأشتم ريحها في النسيم فأشتاق، وأنظر إلى القمر فأظنه في سماءها أجمل، وما بي إلا أن أعود إليها فأموت فيها»، فلما سمعوا هذا منه، قالوا: «صدق من قال: حب الوطن غريزة».

ويُروى أن ملكًا أراد أن يختبر حب وزرائه لأوطانهم، فجمعهم وقال: «من منكم يحب وطنه حتى الموت؟» فقام كل منهم يتكلم ويبالغ، إلا رجلًا من الأعراب كان ساكنًا، فقال له الملك: «وأنت؟» فقال الأعرابي: «أيها الملك، إن كنت تعني أني أموت من أجل وطني، فنعم، أموت ولا أتوانى؛ ولكن إن كنت تعني أني أحب وطني أكثر من أهلي وولدي، فلا، فإنا

أحب أهلي وولدي، وهم في وطني، فإن فנית أوطاننا، بقي حبنا لمن فيها، وإن فنوا هم، صار الوطن سجنًا»، فأعجب الملك بحكمته وقال: «والله ما سمعت كاليوم».

وقيل في أخبارهم: إن رجلاً من الأعراب أسره الروم في بعض الغزوات، فطال أسره، وحزن على وطنه حتى كاد يموت، فكان كلما مر به طير مهاجر إلى الجنوب، ناداه: «يا طير، إن مررت بأرض قومي، فقل لهم: فلان حي، ولكن قلبه قد مات»، فلما سمع الروم هذا منه، تأثروا لحاله، وأطلقوا سراحه، فلما عاد إلى أرض قومه، قبل ترابها، وأنشأ يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِينَّ ثِيْلَةً * بَوَادِي الْأَرَاكِ وَالْمَطَايَا تَحُبُّ

وقد تغنى الشعراء بحب الوطن، وجعلوه ديباجة دواوينهم، وعنوان قصائدهم:

قال أبو تمام في وفاء الغريب للديار الأولى وتعلقه بها:

نَقْلُ فُوَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى * مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى * وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وقال ابن الرومي يصف حب الوطن كحب الأم:

لِي وَطَنٌ أَحْبَبْتُهُ فَطُبِعْتُهُ * حُبَّ الرَّضِيعِ لِثَدْيِ أُمِّهِ

إِنْ سَاءَ نِي زَمَنٌ بِهِ فَلَطَّالَمَا * سَرَّ الْفُوَادِ بِحُلُوهِ وَبِمَرِّهِ

وقال الإمام الشافعي رحمه الله يصف حبه لمكة:

أَيَا مَكَّةَ الْخَيْرَاتِ حُبِّكَ فِي الْحَشَا * يَسِيرُ كَمَا سَارَ النَّسِيمُ عَلَى الزَّهْرِ

فَلَوْلَمْ تَكُونِي قِبْلَةً لِصَلَاتِنَا * لَكَانَ هَوَاكِ الْعَذْبُ أَقْعَدَنِي فِي الْقَبْرِ

وأنت أيها الغريب، إذا حننت إلى ديارك، فذلك شرفك، وإذا بكيت على فراق أهلك، فذلك وفاؤك، وإذا اشتقت إلى تراب أرضك، فهو نبلك، واعلم أن النبي ﷺ قدوتك في هذا كله، فقد خرج من مكة وقلبه معلق بها، ودعا ربه أن يحب إليه المدينة كما يحب مكة، فالغربة قد تكون قضاءً وقدرًا، لكن الحنين فضيلة لا تُنكر.

وأخيرًا:

قد علمت أيها الغريب أن حبك لوطنك شرف لا يزول، وحنينك إليه وفاء لا يحول، ودمعك على فراقه مروءة لا تحول، فإن أذن الله لك بالغربة، وخرجت من ديارك طوعًا أو كرهًا، فاعلم أنك مقبل على طريق الأنبياء، وأن زفرتك الأولى ستكون بداية صبر جميل بلا رياء، فإن أحسست بطعنة الفراق في صدرك تضطرم، وبدمعة الوداع في مآقيك تنسجم، فأنت ذو طبع نبيل قويم، وقلب وفيّ سليم.

الفصل الثاني

(زفرة الغريب ونسمة صبر قريب)

هذا فصلٌ تَهَيَّأ فيه نفسك لتحمل مشقة الفراق، وتعلم كيف تحول الزفرة إلى نسمة،
والدمعة إلى صبر، والألم إلى طاقة وكدّ، وأن الصبر على لأواء الغربة مدرجة الأتقياء،
وسبيل الأنبياء .

قال الله تبارك وتعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام، وقد حمل زوجته وولده إلى وادٍ
غير ذي زرع ولا ماء، ولا أنيس ولا أفياء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، في الآية تخليدٌ لزفرة الأب المودع، ولوعة المفارق
الموجع، لكنها زفرة ممزوجة بتفويض وتسليم، ويقين بأن من يكون في حمى رب البيت لا
يضيع، وقال سبحانه عن يعقوب عليه السلام، وقد ابضت عيناه من الحزن: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو
بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فجعل الشكوى إليه وحده لا إلى الخلق أجمعين، ورفع
الحزن إلى السماء لا إلى كل من هبّ ودبّ، فصار هذا دواء كل غريب .

وعن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ
خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ

صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^١، فانظر كيف صارت الضراء بالصبر نعمةً تُجتلب، ومسرّةً تُكتسب، ومنحة لا محنة.

فتحلّ بالصبر لا بالضجر، وارفع شكواك إلى رب البشر، وقد أشار العرب في أمثالهم إلى عدة معانٍ، فقالوا في حكمتهم ما يروي الظمان، ومن ذلك قولهم في الصبر: «الصبر مفتاح الفرج»، وأصله أن رجلاً طال حبسه وأُغلق دونه الباب، وأطبقت عليه الظلمات والحجاب، فجاءه زائر فراه في ضعف وهزال، فقال له: كيف حالك؟ فقال: «أصبرُ؛ فالصبر مفتاح الفرج»، فلم تمض أيام حتى فك أسره، وعاد إلى أهله سالماً، فذهبت كلمته مثلاً، ومعناه أن الصبر يفتح الأبواب المغلقة، ويجلب الفرج من حيث لا يحتسب العبد.

وقالوا: «الغريب أعمى ولو كان بصيراً»، وأصله أن رجلاً خرج من دياره يطلب رزقاً فابتعد، فنزل بلدة لا يعرف فيها سكيناً ولا أحد، فاحتاج إلى طعام، فسأل قوماً فتعاموا عنه وأخطأوه الطريق عمداً واجتهدوا في تضليله، فجلس كئيباً وقال: «الغريب أعمى ولو كان بصيراً، فكونوا له عيوناً»، فصارت كلمته مثلاً سائراً في الآفاق، ومعناه أن الغربة تسلب المرء فطنته، وتعمي بصيرته، فيحتاج إلى من يأخذ بيده.

وقالوا: «السفر ميزانُ الأقوم»، وأصله أن قوماً خرجوا في سفر بعيد المدى، ومعهم رفيق لم تخبره الصحبة من قبل، فلما اشتدت بهم لأواء الطريق، انكشفت الطباع الخفية في

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفاق، حديث رقم: ٢٩٩٩

الشدائد، فلما عادوا سألهم سائل عن رفيقهم، فقال شيخهم: «السفر ميزان الأرقام»، فذهبت مثلاً ومعناه أن الأسفار تكشف خبايا النفوس، وتعري الأخلاق من أثواب التصنع. ولكن، هل تقف عند الزفرة فنذوب في الأئين، وتتخذ الحنين سجناً للأيام وقيوداً تعوق المسير؟ كلا، بل نرقى بها حتى تصير نسمة صبر، ونحوها إلى بوصلة تُرشد ولا تُضل، وقد أمر الله بالصبر أمر إرشاد: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فجمع بين التقوى والصبر، وجعل جزاءهما أجراً لا يضيع، وهل أعظم من هذا الوعد سلوى؟ وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فصارت البشارة للمبتلين الصابرين، وجاء الوعد الكريم: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، فتأمل هذا التكرار الذي يملأ القلب سكينه، وكيف أن العسر الواحد محفوف بيسرين، فلا يغلب عسرُ يسرين، كرمًا من الله ومنة.

قال أحدهم:

إذا ضاقت بك الدنيا * ففكر في ألم نشرح

ففسر بين يسرين * إن تذكرهما تفرح

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه

اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^١، تأمل هذا الهدى النبوي، كم فيه من بلسم يضمّد الجراح، وكم فيه من أمل يمدّ القلب بنور اليقين!

واعلم أنك لست وحدك في هذا الطريق، إنما الدنيا كلها محطات رحيل، وما من أحد إلا وهو في غربته على قدر، فمن غريب عن وطنه، ومن غريب عن روحه، ومن غريب عن سكينته قلبه، وأنت إذ تقطع الفيافي، وتذرع المروج، وتطوي البحار، فاعلم أن السائرين قبلك كثير، وأن لك في كل ذرة من غبار الطريق إخوة سبقوك، يمدّونك بروحهم، ويواسونك بصبرهم، ويهتفون بك: امض ولا تخف، فما خاب من سار، ولا ضلّ من استرشد، ولا هلك من استمسك بحبل الله المتين.

والسفر فيه من المشقة والتعب ما لا يخفى، قال النبي ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يُمْنَعُ أَحَدُكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ»^٢، وفي هذا إيناس للغريب بأن ما يجده من مشقة وتعب هو طبع السفر، لا ضعف فيه ولا عجز، وكما أنه قطعة من العذاب، فهو عذاب تكفّر به السيئات، وتُرفع به الدرجات، وتُنال به المكرمات، فكم من خطوة في سفر كُتبت حسنة، وكم من ساعة اغتراب رُفعت بها درجة، وكم من تعب في الطريق كان ثمنًا للذة العلم، أو قرة عين باللقاء، أو شرف المعرفة بالله، أو حكمة حصلت لها من الأعراف ومختلف الثقافات والطبائع، إن كل تعب يمر بك، وكل دمة تسقط منك، وكل ليلة بتها مشتاقًا، هي في ميزان حسناتك إن احتسبت، وفي صحيفة عمرك إن صبرت، وفي سفر حكمتك إن اعتبرت.

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم: ٢٥١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح

(٢) صحيح البخاري، كتاب العمرة، باب السفر قطعة من العذاب، حديث رقم: ١٨٠٤

فإذا أقبل عليك الليل وأنت في غربتك، وأنستَ من نفسك وحشةً وصمماً، ورأيت الظلام يلفك من كل جانب سترًا ورهبة، فلا تجزع ولا تفزع، فإن للذاكرين في الليل دثارًا ونورًا، وللمصلين فيه أنسًا وسرورًا، وللمستغفرين في آخره نفحة وغفران، فانهض الآن يا غريب الدار، وامسح دمعك، وارفع بصرك إلى السماء، وعلق بالله قلبك، وأجعله أنسك، وقلبك مليء باليقين، واجعل من ليلتك هذه مطلع فجر جديد، فإن للصابرين موعدًا لا يخلف، وإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا.

الفصل الثالث

دثار الليل وسلاح الذاكرين

هذا فصل نجعله أنسًا لك في وحشة الليل وظلامه، ونعلمك فيه كيف تنقلب ظلمته نورًا بقيامه، وكيف تكون صلواتك وذكرك دثارًا دافئًا وأنسًا لا يوصف، وكيف تصير الخلوة بالله خلوة محبوبة تشرح الصدر وتلطف.

جعل الله - سبحانه - الليل سكونًا، والنهار معاشًا، وجعل في ظلمة الدجى للمؤمن أنسًا، وفي خلوته صلاةً وإناية، وجعل الذكر سلاحًا للموحشين، ودثارًا يلتحف به الغرباء المخلصين، فما هو النبيُّ الكريم - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة، وإذا ادلهمَّ به ليل الغربة أنس بمناجاة مولاه، فكان قيامه شفاءً لصدره، وسلوةً لقلبه، فيا أخي الغريب الذي آواه الليل إلى ديار لا يعرف فيها أنيسًا، ويا من انسدت عليه ستور الظلام فانتقبض صدره، وتضاعفت وحدته، وطال عليه أرق السهاد، لا تجزعنَّ من هجمات الظلام، ولا تستوحشنَّ من سكون الأنام؛ فإن الليل للمؤمن خلوة بالحبيب، وموسم للقرب من علام الغيوب، وساعة صفاء تقف فيها على عتبة الرحمن وحدك، لا يحول بينك وبينه حاجب، ولا يزاحمك في مناجاته مزاحم، قال الرحيم الودود يصف عباده المخلصين: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، فجعل المبيت على عبادة الليل وسيلة إلى بلوغ درجة العبودية الكاملة، وجعل القيام أنسًا ما يكون للمؤمن حين يخلو بنفسه ويخلو بربه، فيا له من شرف عظيم، ويا له من أنيس لا ينام ولا يغفل، لا يرد سائلًا، ولا يقطع واصلاً.

والليل في كتاب الله ليس دثار خوف ووحشة فحسب؛ بل هو دثار سكينه وطمانينة لمن استأنس بالله - سبحانه - قال تبارك اسمه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠]، تأمل قوله سبحانه: «لِبَاسًا»، فالليل يلبسك فيسترك من أعين المتجسسسين، ويغطيك من ضوضاء اللاغطين، ويمنحك فرصة أن تخلو بذاتك، فتراجع زلات يومك، وتزود لآخرتك، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، فقيام الليل أوثق للقدم، وأثبت للقول، وأجمع للقلب، وأصفي للفكر، فإذا أويت إلى فراشك مثقلاً بالهموم، فانهض للصلاة في جوف الليل، تجد الهم قد انزاح، والغم قد زال، والقلب قد صفا، واللسان قد انطلق بذكر لا يشوبه تكلف.

وقد أرشد النبي ﷺ الغرباء والمهمومين إلى هذا الدواء الرباني فقال ﷺ: «يُنزَلُ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^١، فإذا أقبل الليل وأرخى سدوله، فاعلم أن لله في آخر الليل نفحات، ينزل سبحانه نزولاً يليق بجلاله، ليغفر للمذنبين والمستغفرين، فكن ممن يغتم هذه الساعة، تسعد بقرب من لا يرد سائله، ولا يخيب آمله، وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرَمَ قَدَمَاهُ»^٢، فانظر كيف كانت الصلاة قرة عينه وأنسه في خلوته.

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، حديث رقم:

(٢) صحيح البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم: ١١٣٠

ويُروى في أخبار الصالحين أن رجلاً كان غريباً في بلاد لا يعرف فيها أحداً، وكان الليل إذا أقبل عليه يجد في صدره ضيقاً، وفي عينيه سهاداً، فشكا ذلك إلى شيخ من أهل المعرفة، فقال له الشيخ: «أتستوحش ولله في الليل نزول؟ قم إذا هدأت العيون، وادعُ ربك بخشوع، تجد الأُنس في دعائك، والنور في ظلمائك»، ففعل الرجل ذلك، فلم تمض ليالٍ حتى صار الليل أحب إليه من النهار، وانقلبت وحدته أنساً، وصار سهاده عبادة، وضيقة سعة.

وكما قيل: «الليل أخو الغريب»، وأصل هذا المثل أن رجلاً نزل بقوم غرباء فبات ليلته ساهراً، فلما سُئل عن سهره قال: «ما لي مؤنس غير الليل، فهو أخو الغريب» فجرت مثلاً، والمعنى أن الليل بما فيه من سكون وهدوء وطول على الساهرين، يصير كالأخ الشفيق للغريب، يشاركه وحدته، ويطوي معه ساعات الانتظار، فليس الليل عدواً كما يظن الجازعون، بل هو للمؤمنين بلسم ودواء، وللعابدين سلم ومدرج، وللغرباء جليس لا يتم ولا يخون.

وقيل كذلك: «الليل طويل إلا على الساهر» يُضرب هذا المثل في أن الإحساس بالزمن يختلف بين النائم والساهر، فالساهر يشعر أن الليل لا ينقضي، وكأنه دهر يتجدد، وأصله أن امرأة فارقت زوجها فباتت ساهرة، فلما سئلت عن ليلها قالت: «الليل طويل إلا على الساهر»، فذهبت مثلاً، ومعناه أن طول الليل لا يشق إلا على من يسهر وحيداً، ولكن العاقل من يملأ سهره بالذكر والمناجاة، فإن طال عليك ليلك، فاشغل سهرك بطاعة، تنقلب محنتك منحة، وتعبك راحة، وشقاؤك سعادة.

قال أبو العاتية يناجي ربه في ظلام الليل مناجاةً تأب عابد:

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي * مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
وَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي * لِعَفْوِكَ إِن عَفَوْتَ وَحَسُنُ ظَنِّي
فَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي اللَّيَالِي * وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو عَفْوٍ وَمَنْ

وقالوا في مدح قيام الليل: «شرف المؤمن صلواته بالليل»، وأصله أن رجلاً كان معروفاً في قومه بالغنى والجاه، فلما اقتقر وعجز سألوه: أين شرفك؟ فقال: «شرف المؤمن صلواته بالليل». فجرت مثلاً.

فإذا آواك الليل أيها الغريب، فلا تبك على فائت، ولا تحسّر على غائب، بل أسبغ الوضوء على جوارحك، واتصب قائماً بين يدي ربك، تناجي من لا تأخذه سنة ولا نوم، وتشتكي إليه ما تعلم وما لا تعلم، واطرح بين يديه همومك، تجد للفرج مسلكاً، وللهم مهرباً، وللغم منفسحاً، واعلم أن كل ليلة تمر بك وأنت في طاعة فهي زاد ليوم العرض، وكل دمعة تسفكها في خلوة من خشية الله فهي جوهرة في ميزان حسناتك، وكل تسبيحة في سواد الليل تضيء لك ظلمة القبر، وتؤنس وحشة الممات.

وقد ورد عن السلف الصالح في فضل استغلال الليل بالذكر والسجود ما يثلج الصدور، كان الحسن البصري رحمه الله يقول: «أدركت أقواماً كانوا إذا جئهم الليل وقفوا على أقدامهم، يذرفون دموعهم، يتضرعون إلى ربهم في فكاك رقابهم»، وكان أحدهم إذا صلى العشاء تسجى بردائه في محرابه، لا يبرحه حتى يطلع الفجر، يقول: كيف ينام الليل من لا يدري أتأتيه منيته في ليله أم في نهاره؟ فحولوا أيها الغرباء جوف الليل من سجن مظلم إلى روضة

معشبة، ومن خلوة موحشة إلى خلوة محببة، فإنكم إن فعلتم صار الليل أحب إليكم من النهار، وصارت الوحدة آنس لكم من الجمع.

وتأمل في قول الله تعالى أمراً نبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] انظر كيف ربط الله سبحانه بين التهجد في الليل وبين المقام المحمود يوم القيامة، فكل ركعة يركعها الغريب في ظلمة ليله، وكل سجدة يسجدها في خلوته، هي خطوة نحو مقام محمود، ودرجة في سلم الرضوان، وقربة من الحبيب المنان، فإذا امتأ ليلك بالذكر، فأبشر بفجر قريب، ويوم مشرق، وقلب منشرح، وصدر مضيء، فإن مع العسر يسراً، والليل وإن طال فلا بد من صبح، والغربة وإن امتدت فلا بد من إياب.

وأخيراً:

قد عرفت كيف تسكن ليلك بالذكر والمناجاة، وكيف تنقلب الوحشة أنساً بالصلوات، وإن للسفر في كتاب الله وسنة رسوله منافع جمّة، ومزايا عظيمة، لا تقتصر على الأجر، بل تمتد إلى الصحة والرزق والعمر، فانهض الآن، يا ساكن الدجى، وقد رقد الناس من حولك، وخفت الأصوات، وسكنت الحركات، قم إلى طهورك، وافرش سجادتك، وكبر للصلاة، واقرا كتاب ربك وتدبر، وابتك إن استطعت بين يدي مولاك، فإن البكاء من خشية الله يغسل أدران القلوب، ويطفىء لهب الحنين، ويسكن ثورة الأشواق.

الفصل الرابع

(مدارج السائرين، منافع السفر)

هذا فصل نبين فيه أن السفر ليس مجرد انتقال من أرض إلى أرض، بل هو عبادة من العبادات، ومدرسة من المدارس، وسبب للصحة والغنيمة، وطريق لانشراح الصدر وبلوغ العزائم، نقتبس فيه من الآيات والأحاديث ما يبعث فيك الهمة، ويخفف عنك مشقة الطريق. قال الله تبارك وتعالى آمراً وداعياً: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فجعل السير في الأرض وسيلةً للنظر، وطريقاً للتفكر، وسبباً لليقين بالبعث والنشور، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، فربط السير في الأرض بفتح القلوب والعقول، وجعل التخلف عن السير ضرباً من العمى والغفلة.

وأما السنة المطهرة، فقد جعلت السفر ميداناً للأجر، وباباً من أبواب الرزق، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا»^١، تأمل هذه الكلمات القليلة التي جمعت خيري الدنيا والآخرة: (الصحة في البدن، والغنيمة في الرزق) وكما أشرنا سابقاً في الصحيحين: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ...»^٢، وفي هذا الحديث إيناس للغريب

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٨٧١٢

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم: ١٨٠٤

بأن ما يجده من تعب هو طبع السفر، وفيه أيضاً فقه التخفيفات من قصر الصلاة والنفط، وهي رحمة إلهية وتسلية عملية للمسافر.

وقد قالت العرب في أمثالها: «مَنْ سَارَ نَالَ»، وهو مثل مقتضب اللفظ بعيد الغور، وأصله أن أعرابياً سمع رجلاً يتحسر على ما فاته من الكسب، فقال له: «من سار نال» أي: من جد في السير بلغ ما أراد، ومن قعد تخلف، وقالوا: «مَنْ جَدَّ وَجَدَّ، وَمَنْ سَارَ وَصَلَ» وأصله أن قوماً خرجوا في طلب علم، فمنهم من صبر وجد، ومنهم من ضجر وعاد، فقال الشيخ: «من جد وجد، ومن سار وصل».

وقالوا في ذم القعود عن السفر:

إِنِّي رَأَيْتُ وَقُوفَ الْمَاءِ يُفْسِدُهُ * إِنِ سَالَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبْ

وهو بيت للإمام الشافعي - رحمه الله - صار مثلاً، ومعناه أن النفس كالماء، إن ركبت فسدت، وإن جرت وسافرت صفت وطابت.

وقالوا: «السَّفَرُ جِهَادٌ لَا سَيْفَ فِيهِ» يُضْرَبُ هَذَا الْمَثَلُ فِي أَنْ السَّفَرَ ضَرْبٌ مِنَ الْجِهَادِ، فِيهِ تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ، وَفِيهِ أَجْرٌ وَثَوَابٌ.

ويروى أن رجلاً خرج من بغداد يريد الحج، فضل الطريق في بادية الشام، وبات وحيداً في مفازة لا ماء فيها، فأدركه الجوع والعطش حتى أيقن بالهلاك، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إنك تعلم أنني خرجت أوم بيتك الحرام، فلا تجعل هذه الفلاة قبري» ثم غلبه النوم، فرأى في منامه قائلاً يقول له: «قم فامش نحو الشمال، تجد غديراً ونحلاً» فهب من نومه، ومشى كما أمر، فإذا به يجد عيناً تجري، وقافلة قد نزلت، فحمد الله وواصل سيره.

وقيل إن تاجرًا من أهل البصرة خرج في تجارة إلى اليمن، فطال به السفر، واشتدت به
الغربة، فضاقت صدره، فجلس ذات ليلة على صخرة يث همه للنجوم، فمر به شيخ من أهل
اليمن، فقال له: «ما يبكيك يا غريب؟» فشكا إليه طول الطريق وبعد الديار، فقال الشيخ:
«يا بني، إن السفر قطعة من العذاب، لكنه طريق إلى الرزق والغنى، فاصبر فإن مع العسر
يسرًا» فطابت نفس التاجر، وواصل سيره، فربحت تجارته، وعاد إلى أهله محمودًا.

وقد قال الشاعر حاثًا على السفر:

سِرُّ فِي الْبِلَادِ تَجِدُ رِزْقًا وَمَغْفِرَةً * فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَالْخَيْرُ مَبْدُولُ
لَا تَقْعُدَنَّ بَدَارَ ضَاقَ عَيْشٍ بِهَا * فَالْمَاءُ إِنْ رَكَدَتْ يَوْمًا تَغُولُ

وقال الشافعي:

تَغْرَبُ تَجِدُ عَوْضًا عَمَّنْ تَفَارِقُهُ * وَأَنْصَبُ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

فإذا تقرر عندك أن السفر في الجملة خير ونعمة، فاعلم أن لك في رحلات الأئمة أسوة
حسنة، وقدوة صالحة، فهم الذين جعلوا من غربتهم كنزًا، ومن أسفارهم مجددًا، وساروا
على درب النبي ﷺ، وقد نقلت لك من حكاياتهم في الفصل التالي، فتأمل أخبارهم، تجد
فيها سلوى وعبرة لقلبك.

الفصل الخامس

(التَّيْلُ فِي السَّيْرِ، حِكَايَاتٌ مِنْ رِحَالِ الْأُمَّةِ)

هذا فصل تسير فيه مع الشافعي وأحمد والبخاري وابن بطوطة، ترى كيف اغتربوا فبلغوا المعالي، وكيف صارت أسفارهم كنوزاً خالدة، وكيف كانوا لك قدوة في الصبر على وعناء السفر.

السير في الأرض استجابة لأمر إلهي، وتفكر في خلق الله، وطلب للحكمة التي هي ضالة المؤمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^١ فانظر كيف جعل النبي ﷺ السفر في طلب العلم طريقاً إلى الجنة، وكيف وعد سالكه بالتسهيل والتيسير.

وها هو الإمام الشافعي رحمه الله، الذي يضرب به المثل في الاغتراب طلباً للعلم، ولد في غزة، ونشأ في مكة يتيمًا فقيرًا، ثم شد الرحال إلى المدينة طالبًا العلم على يد الإمام مالك، ثم ارتحل إلى اليمن، ثم إلى العراق، ثم إلى مصر حيث استقر أخيرًا، وكان في كل بلد غريبًا، وفي كل مصر دخيلاً، ومع ذلك جعل الله غرته نعمة، وأسفاره كنزًا، ولما سئل عن الغربة وألمها قال أبياته الخالدة:

تَغْرَبُ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ * وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٦٩٩

تَفَرَّجُ هَمَّهُ، وَكَتَسَابُ مَعِيشَةٍ * وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ، وَصُحْبَةٌ مَاجِدٍ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَغُرْبَةٌ * وَقَطْعُ الْفِيَا فِي وَارْتِكَابِ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ * بَدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدٍ

ويُروى أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، خرج من بغداد يطلب حديثاً سمعه عن شيخ في صنعاء اليمن، فقطع الفيافي والقفار، وتحمل الجوع والعطش، حتى بلغ الشيخ، فلما دق عليه الباب، خرج له الشيخ وقال: «من أنت؟» قال: «أنا أحمد بن حنبل، جئت من بغداد لأسمع منك حديثاً»، فبكى الشيخ وقال: «والله لقد سمعت هذا الحديث منذ أربعين سنة، وما ظننت أن أحداً يأتيني من بغداد لأجله» ثم روى له الحديث، فعاد أحمد إلى بغداد يحمل كفه في صدره.

وإليك الإمام البخاري رحمه الله، خرج من بخارى شاباً، فطاف بلاد الإسلام كلها، من خراسان إلى العراق، ومن الشام إلى مصر، ومن الحجاز إلى اليمن، حتى جمع صحيحه الذي صار تاجاً على رؤوس المسلمين، وكان يقول: «ما كتبت حديثاً قط إلا صليت ركعتين» فانظر كيف قرن الرحلة بالعبادة، والسفر بالصلاة، حتى بارك الله له في علمه وعمره.

وقيل في أخبار يحيى بن معين رحمه الله، أنه ورث مالا كثيراً، فأنفقه كله في طلب الحديث، خرج من العراق إلى مصر والشام والحجاز، لا يركب دابة إلا نادراً، بل كان يمشي على قدميه، ولما سئل عن سر صبره على المشقة قال: «من لم يتحمل ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً» أليست هذه كلمات كافية لتوقظ في قلب الغريب همته؟

ويُروى في أخبار ابن بطوطة أنه خرج من المغرب شاباً في الحادية والعشرين، قاصداً الحج، فما عاد إلى بلده إلا بعد ثلاثين سنة، طاف فيها الدنيا من المغرب إلى الصين، وذات مرة، نزل في بلاد لم يعرف أحداً فيها، فجاج وعري ومرض، حتى ظن أنه ميت، فجلس في زاوية مسجد يبكي، فمر به رجل من أهل البلد فحمّله إلى بيته، وأطعمه وسقاه، ومرّضه حتى برأ، فقال ابن بطوطة: «تعلّمت أن الله يجعل للغريب في كل أرض قلباً يحنو عليه».

وقيل أيضاً في أخبار الغرباء من طلبة العلم: أن رجلاً من الأندلس خرج يطلب حديثاً عن شيخ في المشرق، فقطع البحر إلى مصر، ثم سار إلى دمشق، ثم إلى بغداد، وفي كل بلد كان يسأل عن الشيخ، فيقال له: ارتحل إلى بلد كذا، فظل على هذه الحال ثلاث سنين، حتى وجد الشيخ أخيراً في قرية نائية، فلما رآه الشيخ قال: «من أنت؟» قال: «طالب علم من الأندلس» فبكى الشيخ وقال: «والله إني لأروي حديثاً عن النبي ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)، وأنت والله من أهله».

وقد قالت العرب: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ اغْتَرَبَ، وَمَنْ اغْتَرَبَ اخْتَجَبَ، وَمَنْ اخْتَجَبَ اتَّجَبَ» وأصله أن رجلاً سأل عالماً: لماذا تغرب العلماء عن أوطانهم؟ فقال: «لأن طالب العلم إن لم يغترب لم يبرز».

وقال الشاعر في فضل الرحلة للعلم:

تَرَحَّلْ لِحَصِيلِ الْعُلُومِ وَإِنَّمَا * يَعِزُّ الْفَتَى بِالسَّيْرِ لَا بِالْقَنَاعَةِ
فَمَاءُ الْحَيَاةِ الْعَذْبُ فِي مُنْتَهَى الْمَدَى * وَكَيْسَ يَنَالُ الْمَاءَ غَيْرُ مُسَافِرٍ

فهذه بعض حكاياتهم، ودروسهم في الغربة، وعبرهم في الأسفار، فإذا ضقت ذرعًا بغربتك، فتذكر أنك تسير على درب الأئمة، وأن الجزاء ليس في نهاية الطريق فحسب، بل في الطريق نفسه، وقد صبر الأئمة على غربتهم، فبلغوا المعالي، لكن الغربة قد تثقل على النفس، وتورث الكآبة، وتضيق الصدر، وتوهن العزائم، لذا أنقل إليك أدوية مجربة، وحكم بالغة، تفرج همك، وتشرح صدرك.

الفصل السادس

(طعامُ الغربة، طعم الكسب الحلال)

هذا فصلٌ نقف فيه على لذة الكسب الحلال في ديار الاغتراب، وتأمل كيف يكون طعم الخبز الذي أكلته بيمينك مختلفاً عن كل طعام، وكيف يتحول العمل في الغربة من مجرد تعب إلى عبادة، ومن مشقة إلى متعة، ومن غضاضة إلى عزة، فما أحلى لقمة العيش التي تسعى إليها بقدمك، وتجمعها بيدك، وتطعمها لأهلك وأنت بعيد عنهم، تشعر فيها بكرامة النفس، وعزة الاستغناء عن الناس.

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل، حاثاً على السعي والعمل، ومذكراً بأن رزق العبد مقرون بكده: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] تأمل كيف أمر الله بالمشي في مناكب الأرض، وجعل السعي سبباً للأكل من رزقه، فما من لقمة تصل إلى فمك إلا وقد مشيت إليها خطوات، وسعيت في طلبها سعياً، فإذا كان السعي في الأرض عبادة، فكيف بسعي الغريب الذي خرج من دياره يطلب رزقاً حلالاً، ويعفّ به وجهه عن السؤال، ويكدّ به على أهله ومن يعول؟

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩-٤] فالسعي يُرى، والعمل يُحصى، والتعب يُجزى، فكل خطوة يخطوها الغريب إلى رزقه، وكل ساعة يقضيها في كده، مكتوبة في صحيفته، موفورة في ميزانه، أليس هذا عزاء للغريب المتعب، أن تعبته لا يضيع، وسعيه لا يبور؟

وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^١ تأمل هذا الحديث العظيم، كيف فضل النبي ﷺ الطعام الذي يأكله المرء من عمل يده على سائر الأطعمة، وكيف استشهد بنبي الله داود عليه السلام، وكان ملكاً نبياً، ومع ذلك كان يأكل من عمل يده، يصنع الدروع بيمينه ويبيعها، ويأكل من ثمنها، فإذا كان داود عليه السلام يأكل من عمل يده، فكيف بغريب مثلك، يكذب ليجمع قوت يومه، ويشقى لينيبي مستقبله، ويصبر على وعثاء الغربة ليطعم أهله من حلال؟ وقد قالت العرب في أمثالها عن فضل الكسب باليد: «قِيَمَةُ الْمَرْءِ مَا يُحْسِنُهُ»، يضربونه للدلالة على أن قيمة الإنسان ليست في حسبه ولا في ماله، بل في عمله الذي يتقنه، وكسبه الذي يجيده، وأصله أن رجلاً سأل حكيمًا: ما قيمة المرء في هذه الحياة؟ فقال: «قيمة المرء ما يحسنه، فإن كان صانعًا فصنعتة، وإن كان تاجرًا فتجارته، وإن كان عالمًا فعمله، فمن لا عمل له، فلا قيمة له»، فجرت مثلاً.

وقالوا أيضًا: «الكَادُّ عَلَى أَهْلِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وهو مثل يكاد يكون ترجمة لحديث نبوي شريف، ومعناه أن الذي يكذب على أهله، ويسافر لأجل رزقهم، ويشقى لإطعامهم؛ هو في أجر المجاهد في سبيل الله، وأصله أن رجلاً كان يغيب عن أهله شهورًا في طلب الرزق، فقيل له: ألا تستقر؟ فقال: «الكَادُّ عَلَى أَهْلِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فصارت كلمته مثلاً، ثم ثبتت عن النبي ﷺ بلفظ قريب.

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم: ٢٠٧٢

وقالوا أيضاً: «لَا خَيْرَ فِي دِرْهَمٍ لَمْ يُعْرَقْ فِيهِ الْجَبِينُ» يضربونه لدم المال الذي يأتي بلا تعب، ومدح المال الذي يكتسب بالكد والعرق، وأصله أن تاجرًا ربح مالا كثيرا من غير تعب، فسئل عنه، فقال قائل: «لا خير في درهم لم يعرق فيه الجبين».

وللكسب الحلال في حياة الغرباء قصص عجيبة، وأخبار غريبة، تفيض بالعبرة، وتدل على أن لذة الكسب الحلال لا تعادلها لذة: يُروى أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، لما أخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، عرض عليه سعد نصف ماله، فقال عبد الرحمن: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي مَالِكَ وَأَهْلِكَ، ذُلُونِي عَلَى السُّوقِ» فذهب إلى السوق، وبدأ يتاجر، يأخذ ويبيع، يربح ويخسر، يعرق ويجهد، فلم يمض زمن حتى صار من أغنياء المسلمين، وكان يقول: «ما أكلت لقمة أحب إليّ من لقمة أكلتها من كسب يميني» فتأمل كيف آثر الغريب الكسب بالعمل على قبول العطاء، وكيف كانت لذة الكسب الحلال في نفسه أعظم من كل مال.

وقيل في أخبار السلف: إن رجلاً من الصالحين خرج من قريته يطلب رزقاً في بلاد بعيدة، فعمل حمالاً في الأسواق، يحمل الأمتعة على ظهره، ويعرق جبينه، ويأكل من كسب يده، فمر به ذات يوم رجل من أهل قريته، فراه على تلك الحال، فقال له: «يا فلان، أتغرب وتشقى هكذا، وأنت في قريتك من وجهاء القوم؟» قال: «والله لأن أموت في الغربة وأنا آكل من كسب يميني، أحب إليّ من أن أعيش في وطني وأنا أسأل الناس» فتعجب الرجل من عزته، وكتب إلى أهله: «إن ابنكم قد صار في الغربة أميراً، لا يمد يده لأحد، ولا يستذل لأحد، يأكل من كسبه، ويمشي مرفوع الرأس بين الناس».

وقيل أيضاً: إن تاجرًا من أهل الشام نزل بلاد الأندلس، فخسر تجارته، ونفد ماله، فاضطر أن يعمل في البناء، يحمل الحجارة ويشقى، وكان في بلده من الأعيان المترفين، فلما رآه أحد معارفه على تلك الحال قال: «أما تستحي أن يراك الناس تعمل هكذا؟» فقال: «أستحي من ربي أن يراني أسأل الناس، ولا أستحي من الناس أن يروني أعمل وأكّد».

ويروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «نزلت في بعض البلاد وقد نفذ زادي، فاضطرت أن أعمل في حياكة الحرير لأتقوت، وكنت في أول أمري أستحي من هذه المهنة، ثم تذكرت أن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده، وأن النبي ﷺ رعى الغنم، فاطمأنت نفسي، ووجدت في العمل لذة لم أجدها في البطالة» أليس هذا دليلاً على أن العمل في الغربة ليس نقصاً، بل هو شرف وسنة؟

وقد تغنى الشعراء بمدح الكسب الحلال، وذم مسألة الناس، وجعلوا العمل باليد وسام فخر، قال أحدهم يصف لذة الخبز الذي يؤكل من كسب اليمين:

لَقَدْ طَابَ خُبْزُ الْكَسْبِ عِنْدِي وَإِنَّمَا * يَطِيبُ إِذَا مَا كَانَ مِنْ كَدِّ سَاعِدِي
فَلَا خَيْرَ فِي لُقْمِ تَجِيءُ بِذِلَّةٍ * وَلَا خَيْرَ فِي عَيْشِ يَجِيءُ بِمَوَائِدِ

وقال آخر يصف الغريب الذي يكّد:

غَرِيبٌ وَلَكِنَّ الْكَسِيبَ حَبِيبُهُ * يَعْزُّ بِكَدِّ الْيَمَنِ وَهُوَ قَرِيبُ
يُطَاعِمُ خُبْزًا مِنْ عَرَقِهِ وَإِنَّهُ * لَأَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ يُطِيبُ

وقال ثالث يذم السؤال ويمدح الكد:

لَأَنَّ أَحْمَلَ الصَّخْرَ الثَّقِيلَ عَلَى يَدِي * وَأَسْعَى بِهِ حَتَّى يُقَالَ لَهُ اشْتَدَا

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سُؤَالِ مُعْظَمٍ * فَقَدْ قَالَ خَيْرُ النَّاسِ: لَا تَسْأَلُنْ أَحَدًا

وأنت أخي الغريب، كلما شعرت بالتعب من العمل، وكلما ألمك ظهرك من الكد، وكلما تمنيت الراحة والدعة، فتذكر أن تعبك هذا لا يذهب سدى، بل هو في ميزانك يوم القيامة، وهو عزك في الدنيا، وهو شرفك بين الناس، وتذكر أن النبي ﷺ قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» وتذكر أن كل لقمة تضعها في فم أهلك، وكل ثوب تكسوه به، وكل درهم تنفقه عليهم، هو صدقة وقربة، وهو عبادة وجهاد .

ولا تنس أن العمل في الغربة ليس مجرد تحصيل مال، بل هو تربية للنفس، وتقويم للخلق، وتهذيب للطباع، فإن في العمل معنى الصبر، وفيه معنى الاعتماد على النفس، وفيه معنى الاستغناء عن الناس، وفيه معنى العزة والكرامة، وما أجمل أن ينام الغريب ليلاً وقد أكل من كسب يمينه، ليس لأحد عليه مئة، ولا يخاف من أحد تبعة! فإنه ينام ملء جفونه، ويصحو طيب النفس، قرير العين، مطمئن البال .

فلا تحقرنَّ عملاً تكسب به لقمك، ولا تستكف من مهنة تدرّ عليك رزقك، ولا تمدن يدك إلى أحد تسأله، كل مما يسر الله لك، واشكره على ما رزقك، واعلم أن خبز الغربة الذي أكلته من تعبك وجهدك، هو أطيب الخبز في الدنيا، وأعظم أجراً .

وإن وجدت في نفسك وحشة، وفي صدرك ضيقاً، فاعلم أن للغربة وجوهاً مشرقة، وإن من أعظم ثمرات الأسفار أن تعرف إلى ثقافات الأمم، وتتأمل عاداتهم، وتجلس إلى موائدهم، وتقطف من كل بستان زهرة .

الفصل السابع

(مائدة الثقافات، وجوه الدنيا المتعددة)

هذا فصل نفتح فيه بصيرتك على محاسن الاختلاف، ونريك كيف تكون الغربية مختبراً ثقافياً، ومتسعاً للعقل، ووليمة للروح، نقبس فيها من كل بلد زهرة، ومن كل ثقافة عبرة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] تأمل هذه الآية الباهرة، كيف جعل الله الاختلاف آية ظاهرة، لا ساحة تنازع ولا ميدان مفاخرة، فالتعارف غاية الخلق وثمره الأسفار، وبه تنفتح بصيرة الغريب على عوالم لا تحصي وأسرار، فإن أسفارك أيها المهاجر تفتح قلبك، وتجعل مائدة الثقافات أمامك ممتدة، فتجلس إليها كضيف كريم، تلتقط من كل لون طرفة، ومن كل طبق حكمة.

وقد قالت العرب في حكمها: «السَّفَرُ مَدْرَسَةُ الرَّجَالِ» وأصل هذه الحكمة أن أعرابياً نشأ في بادية نائية، فخرج إلى الأمصار في تجارة، فلما عاد سأله قومه عما رأى، فقال: «السفر مدرسة الرجال، وديوان العبر، وجامعة الحكم» ومعناه أن المسافر يتعلم في كل خطوة درساً.

يقول ابن بطوطة في رحلته لما دخل بلاد السودان الغربية: «إذا نزل بهم الضيف لم يسألوه عن اسمه ولا عن وجهته، بل قدموا له الطعام وسقوه، ثم إن رغب في الحديث حدثوه، وإن أثر الصمت تركوه» قال: فشعرت أن الغربية عن هؤلاء لا معنى لها، فالدنيا كلها بيت للكريم.

وقص ابن بطوطة أنه رأى في بعض جزر الهند رجلاً مسلماً من أصل فارسي، قد صار وزيراً لملك تلك الجزيرة، وهو مع ذلك يحافظ على دينه ولسانه، فلما سأله عن سر تمكينه، قال: «يا بني، عاملتهم بالصدق فعززوني، وتعلمت لغتهم فأكرموا مثواي، وشاركهم أفراحهم وأتراحهم فصاروا أهلي» قال ابن بطوطة: «فتعلمت أن الغريب إذا أحسن التأقلم، صار من الأهل، وإذا انغلق على نفسه صار غريباً إلى الأبد».

وقيل في أخبار الأعراب: أن رجلاً خرج في تجارة إلى بلاد فارس، فأقام بها سنين، فلما عاد سأله قومه: «أي البلاد أحب إليك؟» فقال: «كل بلاد فيها كريم فهي بلادي، وكل أرض فيها جواد فهي داري» فصارت حكمة تروى.

وقالت العرب: «الغربة محك العقول» يضربونه للدلالة على أن العاقل يزداد عقله بالغربة، والأحمق ينكشف فيها، وأصله أن رجلين خرجا في سفر، أحدهما ذكي والآخر بليد، فلما عادا سئل عن كل منهما، فقيل: «الغربة محك العقول، أخرجت ذهب هذا ونحاس ذلك».

وقال الشاعر يصف نشوة السفر واكتشاف البلاد:

خُذْ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ زَهْرَةً وَعَبِيرَهَا * وَأَطْوِ الْفِيَا فِي تَغْنَمِ تَغْيِيرَهَا
فَالْعَيْنُ إِذَا رَكَدَتْ تَعَكَّرَ مَاؤُهَا * وَالْأَرْضُ إِذَا جُلَّتْ أَرْدَهَتْ تَصْوِيرَهَا

وقال آخر يصف كيف تكون الغربة مختبراً للفهم:

تَرَى الْعُجْمَ وَالْعُرْبَانَ تَحْتَ سَمَائِهِمْ * فَتَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ لِلَّهِ عَابِدُ
وَتَسْمَعُ الْحَانَ تَشَابَهَ لِحْنِهَا * وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي الَّذِي هُوَ قَاصِدُ

فإذا ضقت ذرعًا بغربتك، فانظر حولك بعين المتأمل لا بعين الناقم، شاهد كيف يصنع
الناس طعامهم، واسمع كيف ينشدون أفراحهم وأحزانهم، وتذوق ثمار بلادهم، تتحول
غربتك بهذا إلى رحلة استكشاف، وتنقلب وحدتك إلى ثراء لا يوصف.

الفصل الثامن

(لغة الغربة)

هذا فصلٌ تعلم فيه أن لغة البلاد التي تنزل بها ليست مجرد حروف وكلمات، بل هي مفتاح القلوب، وجسر الدخول إلى النفوس، وباب الأُنس في ديار الغربة، فمن تعلم لسان قوم أمن مكرهم، ومن تكلم بلهجتهم صار منهم، ومن شاركهم لغتهم شاركوه أفراحهم وأتراحهم، فصار الغريب أهلاً، والبعيد قريباً.

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل، وهو يعدد آياته الدالة على عظمته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]

تأمل كيف جعل الله اختلاف الألسن والألوان آية من آياته، ومعجزة من معجزاته، فلم يجعل التعدد اللغوي بلاءً ولا نقمة، بل جعله دليلاً على قدرته، وسبباً للتعارف بين خلقه، فاللسان الذي تتكلم به ليس مجرد أداة للنطق، بل هو آية إلهية، وهبة ربانية، إن أحسنت استعمالها في بلاد الغربة، فتحت لك أبواب الأُنس، وإن عجزت عنها بقيت وحيداً في زحام الناس.

ولما أرسل الله رسله إلى أقوامهم، أرسلهم بألسنتهم، ليكون الكلام واقعاً في القلوب، وتكون الدعوة نافذة إلى الصدور، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

فإذا كان الأنبياء يخاطبون أقوامهم بألسنتهم، فكيف بالغريب الذي يريد أن يعيش بين قوم، ويتخذ منهم أهلاً وإخواناً، ألا ينبغي له أن يتعلم لغتهم، ويتكلم لهجتهم،

ويشاركهم مفرداتهم؟ إن تعلم لسان القوم هو أول درجات الاحترام، وأول خطوات الاندماج، ودليل على أن الغريب يريد أن يصير من الأهل، لا أن يظل نائياً عنهم.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتابة اليهود، وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فتعلمته، فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقتُه، فكنتُ أكتبُ له إِيهِمْ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له كتابَهُمْ» تأمل هذا الهدى النبوي الكريم، كيف أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود، ليكون واسطة بينه وبينهم، وليأمن مكرهم، وليفهم ما يكتبون، وكذلك كل غريب، عليه أن يتعلم لغة القوم الذين يعيش بينهم، ليأمن غدرهم، وليفهم كلامهم، وليشاركهم حياتهم.

وقد قالت العرب في أمثالها عن فضل تعلم لسان الغير: «مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةَ قَوْمٍ أَمِنَ مَكْرَهُمْ» وهو مثل سائر مشهور (وليس بحديث نبوي) يضربونه للدلالة على أن معرفة لسان القوم تقي شرهم، وتكشف مكرهم، وتجعل الغريب على بينة من أمرهم، وأصله أن رجلاً من العرب أسرته قبيلة أخرى، فتعلم لغتهم، فصار يفهم ما يتحدثون به، فعرف أنهم يخططون للغدر به، فهرب ليلاً ونجاً، فلما عاد إلى قومه قال: «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم» فذهبت كلمته مثلاً.

وقالوا أيضاً: «لِسَانُ الْمَرْءِ سَفِيرُهُ» يضربونه للدلالة على أن اللسان يعبر عن هوية المرء، وأنه سفيره إلى القلوب، وأصله أن حكيماً سئل: ما سفير الرجل إلى الناس؟ فقال: «لسانه، إن

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، حديث رقم: ٧١٩٥

أحسن اختيار الكلمات فتحت له الأبواب، وإن أساء أغلقها في وجهه» ومعناه أن اللسان هو الذي يقدمك إلى الناس، فإن أتقنته أحبوك، وإن عجزت عنه ابتعدوا عنك .

وقالوا أيضاً: «اللحنُ مفتاحُ القلوب» يضربونه في فضل الكلام المتقن، واللهجة الجميلة، وكيف تكون سبباً في فتح القلوب المغلقة، وأصله أن رجلاً غريباً قدم إلى بلد، فتكلم بلهجة أهلها، فأعجبوا به وقربوه، فقال أحدهم: «اللحن مفتاح القلوب» فصارت حكمة .

وتعلم لسان القوم في حياة الغرباء قصص عجيبة، وأخبار غريبة، تفيض بالعبارة، وتدل على أن اللغة هي أول درجات التأقلم، وآخر حدود الغربة: يُروى أن تاجراً من البصرة خرج في تجارة إلى بلاد فارس، فأنزلوه داراً، وأكرموه، لكنه كان لا يفهم لغتهم، ولا يفهمون لغته، فكانت حاجاته تتأخر، وأمور تجارته تعطل، وهو لا يدري ما يقولون، ولا يفقه ما يتحدثون، فضاقت صدره، وعزم على الرحيل، ثم إنه جلس ذات يوم في سوقهم، فسمع صبياً يبيع خبزاً، ويلفظ كلمات بسيطة، فحفظها ورددتها، ثم تعلم كل يوم عشر كلمات، فلم يمض شهر حتى صار يفهم أكثر ما يقال، ويستطيع أن يطلب حاجاته، فلما تكلم بلسانهم، انفتحت له أبواب التجارة، وتقرب منه الناس، وتعلم منهم، وعلمهم، يقول: «فتعلمت أن اللغة باب الدنيا، وأن الغريب الذي لا يتعلم لغة القوم، يظل غريباً أبداً، حتى لو عاش بينهم عمراً» .

وقيل في أخبار الأعراب: إن رجلاً منهم نزل بلاد البربر في المغرب، فكان أول ما فعله أن جلس إلى أطفال الحي، يتعلم منهم ألفاظهم، ويردد كلماتهم، فضحك منه قومه وقالوا: «أجلس مع الصبيان؟» فقال: «نعم، أتعلم منهم لسان القوم، فإن اللسان مفتاح الدار، ومن

لا يحسن لسان قومه، فهو أخرس بينهم» فلم يطل به الزمن حتى صار ترجماناً بين العرب والبربر، وارتفع شأنه، وعظم قدره.

ويُروى أن رجلاً من الأندلس نزل مصر في زمن الفاطميين، فكان إذا مشى في الأسواق لا يفهم المصريين، ولا يفهمونه، فضاق صدره وشعر بالوحشة، فجاءه صديق فقال له: «يا هذا، تعلم لسان القوم، فإنك إن بقيت بلسانك وحده، بقيت غريباً أبداً» فجلس إلى شاعر مصري، يتعلم منه الكلمات والألفاظ، ويحفظ الأشعار المصرية، حتى صار إذا تكلم ظن السامع أنه من أهل مصر، فانفتحت له الدنيا، وتوثقت صلته بالناس، وصار من أعيان البلد، قال: «فتعلمت أن اللغة هي الأرض التي تقف عليها، وأن الغريب الذي لا يتقن لسان البلاد، كمن يقف على الهواء».

وقد تغنى الشعراء بفضل تعلم اللغات، وجعلوها طريقاً إلى الأُنس، وسبيلاً إلى دفع الوحشة، قال أحدهم:

تَعَلَّمَ لِسَانَ الْقَوْمِ تَأْمَنُ وَتَعْنَمُ * وَتَفْتَحُ قُلُوبًا بِالْكَلَامِ الْمُنَمِّمِ
فَمَنْ لَا يُحَسِّنُ قَوْلَهُمْ فَهُوَ غَائِبٌ * وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْقَوْمِ لَمْ يَتَكَلَّمِ

وقال آخر يصف الذي يتعلم لهجة قوم فيصير منهم:

إِذَا مَا تَكَلَّمْتَ اللِّسَانَ الَّذِي بِهِ * يَحِنُّ فُؤَادُ الْقَوْمِ لِمَرَّةٍ يَأْنَسُ
فَصِرْتَ كَأَنَّ اللَّحْنَ فِيهِ قَرَابَةٌ * تَمُدُّ حِبَالَ الْوُدِّ حِينَ تَنْغَسُّ

وقال ثالث يصف حال الغريب الذي لا يتقن لسان البلاد:

غَرِيبٌ بَلَا لِحْنٍ كَأَخْرَسٍ سَاكِتٍ * يَرَى النَّاسَ أَطْيَافًا تَمُرُّ وَيُبْصِرُ

فَإِنْ رَامَ أَنْ يَشْكُوَ فَلَيْسَ بِقَادِرٍ * وَإِنْ رَامَ أَنْ يُبْكِيَ فَلَيْسَ يُعْبَرُ

وأنت أخي الغريب، لا تستهن بتعلم لهجة البلاد التي تنزل بها، ولا تستصغر الكلمات التي يرددها الصبيان في الأسواق، فإن تلك الكلمات هي مفاتيح القلوب، وجسور الوصال، وسبب الإيناس، اجلس إلى الناس، واسمع كيف يتكلمون، وكيف يلقون التحية، وكيف يمزحون، وكيف يتشاجرون، وكيف يتصالحون، تعلم منهم الكلمة والكلمتين، وردددها، واستعملها، وسيأتي يوم تجد فيه لسانك قد صار مثل ألسنتهم، وتجد فيه أنساً عجيباً لم تكن تتوقعه.

واعلم أن تعلم لسان القوم ليس خيانة للسانك الأم، ولا تنكراً لأصلك، بل هو إضافة إلى رصيدك، وزيادة في علمك، وأداة في يدك، فاللسان العربي يبقى هو الأصل، وهو لسان القرآن، وهو الهوية التي لا تذوب، وأما تعلم الألسن الأخرى، فهو عبور إلى فهم الآخر، ومدّ لجسور التفاهم، وفتح لأبواب الخير.

فتعلم لسان البلاد، فإذا تكلمت به صرت من أهل الدار، وانقلبت غربتك أنساً، وتحولت وحدتك صحبة، وصار الغريب قريباً، والبعيد حميماً، لا تظل أخرساً بين الناس، ولا تجعل لسانك حاجزاً بينك وبينهم، بل افتح فمك بالكلمة الجديدة، تفتح لك أبواب الدنيا، وتكسب ود القلوب، وتعبر جسر الغربة إلى شاطئ الأانس.

الفصل التاسع

(دواء الكآبة في ضوء التجارب)

هذا فصل تداوي به نفسك من الكآبة والحزن، تقتبس فيه من هدي القرآن والسنة، ومن حكمة الحكماء، وتجارب العقلاء، ومن قصص السالفين وأخبارهم، ما يكون لك بلسماً ودواءً ناجحاً .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] وهو وعد كريم بأن العاقبة رضا وخير، وأن بعد الضيق فرجاً، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»^١ فهذه الكلمات دواء نبوي مجرب، ودثار روحي يدفع قلب الغريب .

وقد قالت العرب في أدوية الكآبة ودفع الهموم: «دوام الحال من المحال» وهو مثل قديم، وأصله أن ملكاً كان في شدة وبلاء، فسأل وزيره: هل يدوم هذا الضيق؟ فقال: «دوام الحال من المحال» فجرت مثلاً، ومعناه أن حال الإنسان لا تدوم على وتيرة واحدة، فالضيق يتبدد، والفرج يأتي .

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، حديث رقم: ٦٣٤٦

وقالوا: «الهم نصف الهرم» يضربونه في وصف أثر الحزن على البدن، وأصله أن شيخاً كان قوياً، فلما أصابه هم شديد أسرع إليه الشيب والوهن.

وقالوا: «أخو الشدائد مَنْ صَبَرَ» وأصله أن رجلاً امتحن بفقد ماله وولده، فسئل عن سر ثباته، فقال: «أخو الشدائد مَنْ صَبَرَ».

ويروى في أخبار الحكماء: أن رجلاً كان مقيماً في أرض غربة، فضاقت صدره، واسودت الدنيا في عينيه، فخرج يمشي على غير هدى، فمر بشيخ جالس على صخرة، فقال له الشيخ: «يا بني، إن القلب إذا امتلأ بالهم أظلمت فيه الدنيا، فاخرج وسر في الأرض، وانظر إلى السماء، وتأمل الجبال والأنهار، فإنها تذكرك بعظمة الخالق، فيصغر همك في عينك» ففعل الرجل، فوجد من تأمله في خلق الله أثراً عجيباً في تفرج همه.

وقيل أيضاً: إن امرأة من الأعراب طال اغتراب طال اغتراب زوجها، فكانت إذا ضاقت بها الوحدة، خرجت إلى البرية ليلاً، ونظرت إلى النجوم، وتأملت القمر، وقالت: «الذي خلق هذا لا ينسى عباده» فكان ذلك دواءها وسلواها.

ومما يدفع الكآبة عن الغريب: الانشغال بالنافع، فالفراغ يورث الهم، والعمل يطرد الغم، وقد قالت العرب: «الفراغُ مُفسِدَةٌ» وأصله أن رجلاً كان غنياً لا يعمل، فكان دائم الحزن، فلما افتقر واحتاج، اشتغل بالزراعة، فذهب همه.

وقالوا أيضاً: «البث يرد العليل» ومعناه أن كتمان الهم يزيد، وأن الحديث عنه مع صديق مخلص، أو على صفحات دفتر، يخففه ويشفيه.

وقيل في أخبار الأعراب: إن شاعراً كان غريباً، فضاقت صدره، فجلس يكتب شعره، وكلما كتب بيتاً أحس كأن حملاً وضع عن صدره، فقيل له: «أتشكو في الشعر؟» قال: «لا أشكو، بل أفرغ همي في الكلمات، فتطيب نفسي» وهذا أصل قولهم: «الكتابة نصف الراحة».

وقد قال الشاعر في تفرج الهموم بالسير والتأمل:

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ بِالْهَمِّ فَلْيَسِرْ * إِلَى حَيْثُ يَلْقَى الْأَنْسَ أَوْ يَأْنِسِ الزَّهْرًا
فِي السَّيْرِ تَرْوِيحٌ لِقَلْبٍ مُتَمِّمٌ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ تُفَرِّجُ مَا اسْتَسْرَا

وقال آخر يصف راحته النفسية في التأمل:

خَرَجْتُ إِلَى الْبَرِّ الْفَسِيحِ أَفْرَجٌ * هُمُومًا بِقَلْبِي كَادَ مِنْهَا يُشْجِي
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَرْضَ تَخْضُرُ وَالرَّبِّي * دَعَوْتُ الَّذِي نَجَّى الْغَرِيقَ فَنَجَّى

فإذا ضاقت بك السبل، وتكالبت عليك الهموم، فتذكر أن الله معك، وأنه لن يتركك، وانظر إلى حال الماضين: كم غريب مرت به الشدائد فانفرجت، وكم مهموم ضاقت به الدنيا فأتسعت.

الفصل العاشر

(ظِلُّ الْوَحْدَةِ: عن داء العزلة ودوائه)

هذا فصلٌ نحذّر فيه من داء العزلة الذي يتسلل إلى قلب الغريب، فتحلوه الوحدة أولاً ثم تنقلب سجنًا، ويستأنس بالانفراد بدايةً ثم يصير داءً، وفيه تعلم كيف يفرّق الغريب بين الخلوة المحمودة والعزلة المذمومة، وكيف يجعل اختلاطه بالناس دواءً لروحه، وقوة لقلبه.

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل، أمرًا عباده بالاجتماع على الخير، وناهيًا عن التفرق والشتات: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] تأمل كيف أمر الله بالجماعة، وجعل الاعتصام جماعيًا لا فرديًا، لأن الاجتماع قوة، والتفرق ضعف، والوحدة مدعاة للشيطان، فالغريب الذي ينعزل عن الناس، ويؤثر الوحدة على الجماعة، يوشك أن يقع في حبال الشيطان، وتضيق نفسه، وتظلم دنياه، وقال سبحانه أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فجعل التعارف غاية، ولا تعارف مع عزلة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ»^١ تأمل هذا التوجيه النبوي الكريم، كيف جعل النبي ﷺ المؤمن الذي يخالط الناس ويحتمل أذاهم أفضل عند الله من المؤمن الذي ينعزل عنهم ويسلم

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، حديث رقم: ٢٥٠٧، وقال: حسن صحيح، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن،

حديث رقم: ٤٠٣٢

من أذاهم، فالعزلة سلامة، لكن المخالطة مع الصبر عبادة، فالغريب الذي يصبر على جفاء الناس، ويحتمل غلظتهم، ويخالطهم في مساجدهم وأسواقهم، خير من الغريب الذي يغلق عليه بابه، ويألف وحدته.

ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^١ فجعل معية الله مع الجماعة، لا مع المنفرد، فالغريب الذي يلزم الجماعة في صلاة وذكر وعلم؛ فهو في كنف الله، والذي يأوي إلى عزله ويستوحش؛ فهو بعيد عن هذه المعية.

وقد قالت العرب في أمثالها عن العزلة وذمها: «الْعُرْلَةُ عُقُوبَةٌ» يضربونه للدلالة على أن الإنسان إذا انقطع عن الناس، صارت وحدته سجنًا له، وعقوبة لنفسه، وأصله أن رجلاً كان ذا جاه ومال، ثم اقتقر فانقطع عن الناس، فجلس وحيداً في بيته لا يخرج ولا يدخل، فمر به صديق فقال: «ما حالك؟» قال: «العزلة عقوبة، والناس في غنى عني، وأنا في غنى عنهم» فقال له صديقه: «العزلة عقوبة، فاخرج إلى الناس، تخرج من عقوبتك» فخرج، فوجد الأوس وانفرج همه.

وقالوا أيضاً: «الْوَحْدَةُ قَبْرُ الْحَيِّ» يضربونه في وصف أن الوحدة موت بطيء، وأن المنقطع عن الناس كالميت بين الأحياء، وأصله أن رجلاً اعتزل قومه بعد نازلة أصابته، فجلس في داره مغلقاً عليه الباب، لا يكلم أحداً، ولا يؤاكل أحداً، ف قيل فيه: «الوحدة قبر الحي، فلان

(١) سنن الترمذي، كتاب الفتن، حديث رقم: ٢١٦٦، وقال: حسن غريب

دفن نفسه وهو حي» ومعناه أن العزلة تفقدك لذة الحياة، وتذهب بهجتها، وتجعلك كالميت الذي لا يشعر بما حوله.

وقالوا في مدح المخالطة: «النَّاسُ دَوَاءُ النَّاسِ» يضربونه للدلالة على أن الإنسان لا يستغني عن أخيه الإنسان، وأن في مخالطة الناس شفاءً للموم، وتفريجاً للكروب، وأصله أن حكيمًا سئل: ما دواء الهم؟ فقال: «الناس دواء الناس، فمن ضاق صدره، فليخرج إلى الناس، يحدثهم ويستمع إليهم، ينس همّه».

وللعزلة في حياة الغرباء قصص محزنة، وأخبار معبرة، تفيض بالعبرة: يُروى أن رجلاً من طلبة العلم، خرج من بلده إلى بلاد بعيدة، يطلب علمًا، فنزل في مدينة كبيرة، لا يعرف فيها أحدًا، وكان خجولًا منطويًا على نفسه، لا يخاطب الطلاب، ولا يجالس العلماء، بل كان إذا حضر الدرس جلس في زاوية، فإذا انتهى عاد إلى غرفته، وأغلق عليه بابه، فمضت شهور، وهو على هذه الحال، لا صديق له، ولا أُنيس، حتى صار إذا مشى في الطريق لا يسلم على أحد، ولا يسلم عليه أحد، فضاقت صدره، واشتدت به الوحشة، وأوشك أن يترك الدراسة ويعود إلى أهله، فبينما هو على هذه الحال، رآه شيخ من شيوخ المدرسة، فرق لحاله، وجلس إليه، وسأله عن شأنه، فأخبره؛ فقال له الشيخ: «يا بني، إنك لا تطلب العلم وحدك، ولا تعيش وحدك، فاخرج من قوقعتك، وجالس الناس، تصبّر على أذاهم، تجد في مخالطتهم أنسًا، وفي صحبتهم خيرًا» ففعل الطالب، وأخذ نفسه بالمخالطة، فلم يمض شهر حتى صار له أصحاب، وذهب عنه ما كان يجده، وقال: «لولا تلك الكلمة من ذلك الشيخ، لهلكت في غربتي».

وقيل أيضاً: إن رجلاً من الأعراب خرج إلى الحاضرة، فعمل تاجراً، وكان منفرداً في دكانه، لا يخالط التجار، ولا يجالس الجيران، فطال به الزمن، حتى نسي كيف يتكلم مع الناس، وصار إذا خاطبه أحد تلثم، وإذا داعبه أحد غضب، فجاءه يوماً رجل حكيم، فراه على تلك الحال، فقال له: «يا هذا، أراك وحيداً في زحام الناس، أتحسب أن العزلة تحميك؟ إن العزلة تمرض الروح، وتفسد الطبع، وتذهب ماء الوجه، فأخرج إلى الناس، وجالسهم، وشاركهم أفراحهم وأحزانهم، تجد للحياة طعمًا» فانتفض التاجر، وأغلق دكانه ساعة، وخرج إلى السوق، فجلس إلى جماعة من التجار، وتحدث معهم، فوجد أنسا لم يجده من قبل.

ويروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «نزلت في بعض البلاد، فمرضت مرضاً شديداً، فبقيت في غرفتي وحدي أياماً، لا أدخل على أحد، ولا يدخل عليّ أحد، فلما تماثلت للشفاء، شعرت أنني قد صرت غريباً عن الناس، وكأني نسيت كيف أتحدث إليهم، فعزمت ألا أعود إلى تلك العزلة أبداً، وخرجت إلى الأسواق والمجالس، وخالطت الناس، فعاد إليّ أنسي بنفسي».

وقد تعنى الشعراء بدم العزلة، ومدح المخالطة، قال أحدهم:

تَجَنَّبْتُ خُلُقَ النَّاسِ حَتَّى كَانِي * غَرِيبٌ بَارِضٍ مَا بِهَا مِنْ أُنَيْسِ
فَأَصْبَحْتُ لَا أَتَقَى امْرَأً فَأَكَلَّمَهُ * كَأَنِّي طَلَلْتُ بَيْنَ تِلْكَ الْأُنَاسِ

وقال آخر يمدح المخالطة بالمعروف:

خَالِطُ أَنَاسًا بِالَّذِي يَعْرِفُونَهُ * تَسَلَّمُ وَتَأْمَنُ فِي الْحَيَاةِ وَتَعْتَمُ

فَلنَّاسُ دَاءٌ وَالدَّوَاءُ قَرِيبُهُمْ * فَأَخْرُجُ إِلَيْهِمْ تَلْقَى قَلْبًا يُسَلِّمُ

وقال ثالث يصف العزلة بأنها موت:

إِذَا اعْتَزَلْتَ النَّاسَ عِشْتَ مُعَذَّبًا * وَمَتَّ وَحِيدًا فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ تَمُتْ

فَكَمُ مِنْ غَرِيبٍ عَاشَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ * وَكَمُ مِنْ وَحِيدٍ بَيْنَ قَوْمٍ قَدْ انْحَنَّتْ

فيا أخي الغريب، لا تجعل من العزلة عذراً للعزلة، ولا تجعل من الوحشة سبباً للانقطاع، افرض على نفسك الخروج إلى الناس كل يوم، ولو ساعة، ابحث عن مجلس علم، أو حلقة ذكر، أو جماعة رياضة، أو رفقة خير، ادخل المسجد، وسلم على من فيه، وإذا وجدت وجهاً مألوفاً فاقرب منه، وكلمه، واستمع إليه، إن العزلة في أولها راحة، وفي آخرها سقم، وفي بدايتها سكون، وفي نهايتها هم، أما المخالطة، فإن فيها تعباً في البداية، لكن فيها أنساً في النهاية، وفيها ألم أول الأمر، لكن فيها سعة آخر الدهر.

واعلم أن الخلوة المحمودة التي ترتادها للصلاة والذكر وقراءة الكتب والتعلم، غير العزلة المذمومة التي تنقطع فيها عن الناس، فالخلوة ساعة، والعزلة عمر، والخلوة قوة، والعزلة ضعف، والخلوة زاد، والعزلة مهلكة، فالغريب العاقل هو من يجمع بين الخلوة بربه، والمخالطة لخلقه، فيجتمع له خير الدنيا والآخرة.

فلا تدع الوحشة تسوقك إلى العزلة، ولا تدع الحنين يدفعك إلى الانغلاق، اخرج إلى الناس، تكن منهم، وعش بينهم، تكن بهم، فالغريب الحقيقي ليس من بعدت دياره، بل من انقطعت أوصاله، والبعيد الحقيقي ليس من نأت أرضه، بل من غلق بابه، اطرق باب المسجد، وافتح قلبك للجليس، وابذل وجهك للسلام، تجد أن الدنيا مشرقة، وأن الناس ما زالوا بخير.

الفصل الحادي عشر

(سند الغربة، رفيق الدرب وبلسم التعب)

هذا فصل نُقِف فيه على نعمة الصديق في ديار الغربة، وتعلم فيه كيف تختار الصاحب الصالح الذي يدلك على الله، وتأمل كيف يكون الرفيق ظهراً يُسند إليه، وبلسمًا يُداوي به، وكيف تتحول الصحبة الصالحة من ترف إلى ضرورة، ومن عادة إلى عبادة، فالصديق في الغربة ليس رفاهية، بل هو زاد الطريق، وهو السور الواقي من الوحشة، وهو المرأة التي ترى فيها نفسك، وهو اليد التي تشدّ على يدك حين تزل قدمك.

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل، أمراً نبيه ﷺ بصحبة الصالحين: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] تأمل كيف أمر الله نبيه أن يصبر نفسه مع الصالحين، وأن يلزمهم ولا يتجاوزهم إلى غيرهم، فالصحبة الصالحة في هذه الآية ليست خياراً، بل هي أمر إلهي، ووصية ربانية، فالغريب الذي يجد في غربته صديقاً صالحاً يدعو إلى الله، ويذكره بالآخرة، ويصبر معه على وعناء الطريق، قد نال خيراً عظيماً.

وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فجعل الولاية بين المؤمنين قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالرفيق في الغربة ليس مجرد أنيس، بل هو وليّ، يأمرك

بالخير، وينهاك عن الشر، ويدلك على طريق الرشد، فأى نعمة أعظم من رفيق كهذا في ديار
الغربة؟

وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ
الْحَدَّادِ، لَا يَعْدُمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِلَّا مَا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ
أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً»^١ تأمل هذا المثل النبوي البديع، كيف شبه النبي ﷺ
الجلس الصالح بحامل المسك، إن لم تنل منه شيئاً، نلت من ريحه طيباً، والغريب في بلاد
الغربة، إن لم يجد صديقاً يعطيه، وجد صديقاً ينفعه بصحبته، ويؤنسه بحديثه، ويسليه
بوجوده.

وقد قالت العرب في أمثالها عن الصديق والرفيق: «الصَّاحِبُ سَاتِرٌ وَقَائِدٌ» يضربونه للدلالة
على أن الصديق الحقيقي هو الذي يستر عيوب صاحبه، ويقوده إلى الخير ويدفعه إليه،
وأصله أن رجلاً كان له صديق وفيّ، فكان إذا رآه يميل إلى خطأ، ستره عن الناس، ثم أخذ
بيده في الخفاء وقومه، فسئل عنه فقال: «صاحبي ساتر وقائد، يستر عيبي عن الناس،
ويقودني إلى الخير في السر».

وقالوا: «رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ» يضربونه للدلالة على أن الصديق الصدوق قد يصير كالأخ
الشقيق، بل قد يزيد عليه في الوفاء والنصح، وأصله أن أعرابياً أنقذه صديق له من ورطة
عظيمة، فلما رجع إلى قومه قالوا: كيف نجوت؟ فقال: «نجاني أخ لم تلده أُمِّي» فذهبت

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، حديث رقم: ٢١٠١

مثلاً، ومعناه أن الصداقة الحقيقية تصير نسباً، وأن الرفيق في الغربة يصير أهلاً، وأن الغريب إذا وجد صديقاً وقيّاً، فكأنما وجد أحاً.

وللصديق في حياة الغرباء قصص عجيبة، وأخبار غريبة، تفيض بالعبرة، وتدل على أن رفيق الدرب هو بلسم التعب، وظل الشجرة في الهجير: يُروى أن رجلين من طلبة العلم خرجا من بلدهما في طلب الحديث، فسارا معاً في الطرقات، يقتسمان الخبز والماء، ويتصبران على الجوع والعطش، فمرضا ذات يوم، واشتد مرض أحدهما، فحمله صاحبه على ظهره أميالاً حتى بلغ به قرية، فداواه ومرّضه حتى شفي، فلما قام من مرضه، قال له صاحبه: «والله لو متّ في هذا الطريق، لدفنتك بيدي، ثم واصلت السير لأبلغ رسالتك إلى أهلك» فبكى الرجل وقال: «هذا والله الصاحب الذي لا يعوّض، هذا سند الظهر وبلسم التعب».

وقيل أيضاً: إن رجلاً من العرب خرج إلى بلاد فارس في تجارة، فخسر ماله، وأصابه همّ وغمّ، ففقد في سوق المدينة لا يدري ما يصنع، فمر به رجل من تجار العرب، فراه على تلك الحال، فجلس إليه وسأله عن شأنه، فأخبره، فقال له التاجر: «يا أخا العرب، أنا رفيقك، وهذا مالي بيني وبينك نصفان، فخذ نصفه، واتجر به، فإذا أسرت أعدته إليّ» ففعل الرجل، فريح وأيسر، ثم جاء إلى صاحبه يعيد إليه المال، فقال له صاحبه: «لا أريد مالاً، أريد أحاً، فإن الغربة كربة، والمال فيها فانٍ، والأخ فيها باقٍ» فصارت قصتهما مضرب المثل.

ويُروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «تعلمت في أسفاري أن الصديق في الغربة هو الكنز الحقيقي، هو الدرهم الذي لا ينفق، والزداد الذي لا ينفد، كم من مرة أتقذني صديق من

موت، وكم من مرة واساني رفيق في بلاء، ولولا رفقة الصالحين في الطريق، لكنت هلكت في أول الطريق» فهذا شهادة من رحالة خبر الدنيا؛ أن الصديق هو أعظم ما يكسبه الغريب في أسفاره.

وقد تغنى الشعراء بمدح الصديق في الغربة، وجعلوه ظهراً وسنداً وبلسمًا، قال أحدهم:

رَفِيقٌ فِي الْبِلَادِ الْبُعْدِ ظَهْرِي * إِذَا مَا اشْتَدَّتِ الْأَهْوَالُ سَهْلًا
يُقَاسِمُنِي الْخُبْزَ فِي يُسْرِي وَعُسْرِي * وَيَحْمِلُ عَنِّي الْأَثْقَالَ حَمْلًا
وقال آخر يصف الصديق الصدوق:

إِذَا كُنْتُ فِي أَرْضِ الْغُرْبَةِ وَحْدَكَ * فَبَادِرْ إِلَى صَحْبِ كِرَامٍ تَأْنَسُ
فَإِنَّ الصَّدِيقَ الصَّدُوقَ فِي الْغُرْبِ نِعْمَةٌ * يَظَلُّ بِهَا الْمَرْءُ الْغَرِيبُ يُحْرَسُ

وقال ثالث يصف رفيق الدرب الذي يخفف الهموم:

خَلِيلٌ فِي الْغُرُوبِ يُزِيلُ هَمِّي * وَيَجْبُرُ كَسْرَ قَلْبِي حِينَ أَوْهَنُ
فَلَوْلَا ذَاكَ مَا صَبَرْتُ نَفْسِي * عَلَى لَأْوَاءِ غُرْبَتِهَا وَتُحْزَنُ

وأنت أخي الغريب عن أهله وأوطانه، وأنت تدرع البلاد وحدك، لا تظن أن الصديق سيأتيك إلى غرفتك، ولا تنتظر أن يطرق بابك رفيق لم تبحث عنه، بل اخرج إلى الناس، وابحث عن الصالحين، واجلس إلى حلق العلم والذكر، واقرب من أهل الخير والدين، كن أنت الصديق الذي تنتظره، تبادر بالسلام، وتبذل العون، وتصدق في المودة، تجد الناس إليك مسرعين.

ولا تنس أن الصديق في الغربة ليس مجرد ظل تأنس به، بل هو واجب وأمانة، فإن وجدت صديقاً صالحاً، فتمسك به، واحفظه، واستره، وانصحه، وكن له كما تحب أن يكون لك،

فإنكما معًا تقطعان درب الغربة، وتشاركان خبزها وملحها، وتتواسيان في فرحها وترحها،
فتصير الغربة عليكما خفيفة، ويصير الطريق عليكما سهلاً.
واعلم أن الصداقة الحقيقية لا تقاس بطول المدة، ولا بكثرة اللقاءات، بل بصدق المودة،
وصفاء النية، وثبات الموقف، فربّ صديق عرفته في سفر أيام، صار لك أخًا للأبد، وربّ
رفيق لقيته في طريق، صار لك سندًا طول حياتك.

الفصل الثاني عشر

(جليس لا يمل: الأئيس الصامت)

هذا فصل تعلم فيه كيف تجعل الكتاب جليسا لا يمل، والدفتر مؤنسا لا يخون، إن لم تجد صديقا صالحا، ولا صاحبا ناصحا، وإن وجدت فتجمع بين خيرين؛ رفقة الإخوان ورفقة الأوراق.

لم تقتصر حكمة العرب على الصحبة وحدها، بل جعلوا الكتاب جليسا أنفع من كثير من الأصحاب، قالوا في أمثالهم: «الجليس الصالح خير من الوحدة، والكتاب النافع خير من جليس السوء» وأصله أن رجلا كان غريبا، فسأل حكيمًا: «بم أتسلى في وحدتي؟» فقال: «اقتن كتابا، تجد فيه ألف صديق» ففعل، فوجد في القراءة أنسا عجيبا. وقالوا أيضا: «الكتاب جليس لا يمل، وصاحب لا ينم، ورفيق لا يؤذيك» وأصله أن ملكا سأل حكيمًا: «أي الجلساء أحب إليك؟» فقال: «الكتاب، إن أطعته أفادني، وإن هجرته لم يغضب».

وللسلف في هذا قصص تلج الصدر، يُروى أن الإمام أحمد بن حنبل كان إذا سافر حمل كتبه معه، فقيل له: «أتحمل هذا الثقل في السفر؟» فقال: «أما إني لو سافرت وحدي ما استوحشت، ففي رفقة الكتب أنس يعجز عنه الأصحاب».

ويُروى أيضا أن أديبا كان في بعض فنادق دمشق، لا يعرف أحدا، فدخل عليه صاحب الفندق فراه يقرأ ويضحك ويبكي، فقال: «يا هذا، أراك وحدك، فمن تحدث؟» قال:

«أحداث أئمة السلف، وأضحك من نوادر العرب، وأبكي من عبر القرآن» فخرج الرجل وهو يقول: «سبحان من جعل الكتاب للمغرب أنساً».

وقيل في أخبار الأعراب: إن رجلاً خرج في سفر طويل، فكان كلما ضاق صدره، جلس وكتب ما في قلبه، ثم مزق الورق، فسأله رفيقه: «لماذا تكتب ثم تمزق؟» قال: «أفرغ همي في الورق، فإذا امتلأ مزقته، وكأني مزقت همي» فصارت حكمة تروى، وهو أصل قولهم: «الورق صدر ثان».

قال أحدهم في مدح الكتاب:

إِذَا كُنْتَ فِي وَحْشَةٍ فَاطْلُبْ * جَلِيسًا كَرِيمًا يَزِيدُ النَّسْ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَاحِبًا فَالْكِتَابُ * خَيْرُ جَلِيسٍ يُجَلِّي الْغَبْسَ

وقال آخر في وصف أنسه بالكتب:

أَنِيسِي كِتَابٌ فِي الْفِيَا فِي وَحِيدِنَا * يُسَامِرُنِي لَيْلًا وَيُصْحَبُنِي وَحْدِي

إِذَا مَلَّنِي صَحْبِي فَكَمْ مِنْ جَلِيسِهِ * يَفِي لِي وَيُسَلِّينِي وَيَشْغَلْنِي عَنْ بُعْدِي

فاختر لنفسك، أيها الغريب، إما صديقاً صالحاً يدلك على الله، وإما كتاباً نافعا، وإما دقراً تفرغ فيه همومك، وأما صديق السوء فعليك منه بالفرار، فصحبته مجلبة للهم والشر والعار، واجعل القرآن صاحبك، فإن كان في الأخبار والقصص والأصحاب تسلية للنفوس؛ فالقرآن هو شفاء الروح وأنسها، وبهاء الحياة ونورها، وذهاب الهموم، ورفع الأحزان والغموم.

الفصل الثالث عشر

(طَيْفُ الذِّكْرِ، رَوَائِحُ الدَّارِ وَالْوَانِهَا)

هذا فصلٌ نَقَفَ فِيهِ عَلَى لِحْظَاتِ الْحَنِينِ، وَتَأَمَّلَ فِيهِ رَوَائِحَ الدَّارِ وَالْوَانِهَا الَّتِي لَا تَغِيبُ عَنِ الْعَيْنِ، فَالْحَنِينُ لَا تُثِيرُهُ الصُّورُ الْعَرِيضَةُ وَحَدَّهَا، بَلْ تُثِيرُهُ الرَّائِحَةُ الْعَابِرَةُ وَالطَّعْمُ الْقَدِيمُ، وَتُسْتَدْعِيهِ النَّسَمَةُ الْحَامِلَةُ عَطْرَ التَّرَابِ الْمَمْزُوجِ بِمِيَاهِ الْأَمْطَارِ، فَيَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَى رَائِحَةِ الدِّيَارِ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ، مَذْكُرًا عِبَادَةَ بِنِعْمِهِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِي الْوَجْدَانِ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٤] تَأَمَّلْ كَيْفَ أَنَّ النِّعْمَ الَّتِي لَا تُحْصَى لَيْسَتْ فَقَطِ الْكَبِيرَةُ الظَّاهِرَةُ، بَلْ فِيهَا أَيْضًا الرَوَائِحُ وَالْأَلْوَانُ وَالطُّقُوسُ الصَّغِيرَةُ السَّاكِنَةُ فِي قَرَارَةِ النَّفْسِ، فَالرَّائِحَةُ نِعْمَةٌ، وَاللَّوْنُ نِعْمَةٌ، وَالطَّعْمُ الَّذِي عَرَفْتَهُ مِنْذُ الصَّغَرِ نِعْمَةٌ، فَإِذَا فَقَدَهَا الْغَرِيبُ، عَرَفَ قَدْرَهَا، وَحَنَّ إِلَيْهَا حَنِينًا لَا يِعَادِلُهُ حَنِينٌ.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ، طَيْبُ الرَّائِحَةِ»^١ فَانظُرْ كَيْفَ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِقَبُولِ الرِّيحَانِ لَطِيْبِهِ، وَجَعَلَ الرَّائِحَةَ الطَّيْبَةَ نِعْمَةً تُقْبَلُ وَلَا تُرَدُّ، فَإِذَا كَانَتْ الرَّائِحَةُ الْجَمِيلَةُ تُقْبَلُ وَتُسْتَحَبُّ، فَرَائِحَةُ الدَّارِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا، وَتَرَابُ الْأَرْضِ الَّتِي دَرَجَتْ عَلَيْهَا، وَخَبْزُ الْأُمِّ الَّذِي تُسْرِي رَائِحَتَهُ بِدَاخِلِكَ مِنْذُ الصَّغَرِ تُسْتَحَبُّ وَتُسْتَجَلَبُّ، فَتَمُوتُ رَوَائِحُ لَا تُنْسَى، وَالْوَانُ لَا تُمَحَى، وَذِكْرِيَاتٌ لَا تَبْلَى.

(١) صحيح مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب، حديث رقم: ٢٢٥٣

وقد قالت العرب في أمثالها عن أثر الرائحة في تذكّر الأحبة: «الرَّيحُ رَسُولُ الْمُشْتَاقِ» وأصله أن رجلاً كان بعيداً عن أهله، فمرّت به نسمة ريح تحمل رائحة أرض قومه، فبكى وقال: (الريح رسول المشتاق، تنقل له أخبار الأحبة، وتخبره عن الديار) فجرت مثلاً، ومعناه أن الرائحة تحمل إلى الغريب خبر وطنه، وتخبره عن أهله، وتستدعي ذكرياته، فكانها رسول بينه وبين أحبته.

وقالوا أيضاً: «الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ تُذَكِّرُهُ الْأَحِبَّةَ» يضرّبونه في وصف حال الغريب الذي يحن إلى وطنه إذا شم رائحة مألوفة، وأصله أن أعرابياً خرج في سفر، فمرّ بحقل زهر يشبه زهر قومه، فشّمّه وانهمرت دموعه، وقال: «الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ تُذَكِّرُهُ الْأَحِبَّةَ» فصارت مثلاً.

وللروائح في حياة الغرباء قصص عجيبة، تفيض بالحنين، وتدل على أن الذاكرة مرتبطة بالحاسة قبل العقل: يُروى أن رجلاً من أهل الشام أقام في الأندلس سنين طوالاً، فأصابه ذات يوم عطر الياسمين الدمشقي في سوق من أسواق قرطبة، فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق سأله: ما أصابك؟ قال: «والله ما أصابني إلا رائحة الياسمين، فقد ذكرتني بدارنا في دمشق، ورأيت وجه أمي في الغسق، فغلبني الشوق فسقطت».

وقيل: إن رجلاً من أهل العراق أقام في خراسان، فكان كلما اشتد به الحنين، ذهب إلى سوق العطارين، وشمّ روائح المسك والعنبر والكافور، وقال: «هذه روائح بغداد، هذه روائح دجلة، هذه روائح داري» فسأله صديق: «أيذهب الحنين بشم الروائح؟» قال: «لا، ولكنه يخففه، فإني حين أشم هذه الروائح، أعيش وقتاً في وطني، وأرى وجوه أهلي، وأسمع أصواتهم، ثم أعود إلى غربتي ومعني زاد من الذكرى».

ويُروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «ومن عجيب ما أصابني أني كنت في الصين، فأصابني حنين شديد إلى المغرب، فبينما أنا أمشي في سوقهم، سمعت امرأة تغني بألحان بلادنا، فوقفت أذرف الدمع، فلما انتهت، سألتها: من أنت؟ قالت: امرأة من الأندلس، أسرت ثم أعتقت، فغنيت بألحان الأندلس لأتسلى، فبكينا معاً، وتشاركنا الحنين، وانصرفت وقد خف عني بعض ما أجد» انظر أخي الغريب، فالنغمة المألوفة رسول حنين، والرائحة واللحن ذكري وطن وحياة، وأنت كم مر بك من ريح طيبة شممت فيها عبق موطنك، ودفع بيتك ومولدك؟ إنه عبق الحنين.

قال أحدهم يصف حنينه إلى روائح قريته:

أَحْنُ إِلَى رِيحِ الصَّبَا حِينَ تُنْجَلِي * عَلَى تُرْبَةِ الْأَحْبَابِ مِنْهَا نَسَائِمُ
فَأَذْكُرُ أَيَّامَ الصَّبَا وَمَلَاعِبِي * وَأَبْكِي وَقَلْبِي بِالْحَنِينِ مُلَازِمُ

وقال آخر يصف ألوان سماء وطنه وقت الغروب:

أَحِبُّ مِنَ الْأَلْوَانِ لَوْنَ سَمَائِهَا * وَقْتَ الْغُرُوبِ وَقَدْ تَوَشَّحَ بِالذَّهَبِ
فَذَاكَ لَوْنٌ فِي الْقُلُوبِ مُخَلَّدٌ * مَهْمَا اغْتَرَبْنَا لَا يَغِيبُ وَلَا يَذِبُ

وقال ثالث في الطعم الذي يذكره بوطنه:

لِي فِي بِلَادِي طَعْمَةٌ مَحْفُوظَةٌ * طَعْمُ الْخُبْزِ مِنْ يَدِ أُمِّي يَوْمَ عِيدِ
مَهْمَا أَكَلْتُ بَغْرُتِي مِنْ طَيْبٍ * يَبْقَى لِذَلِكَ الطَّعْمِ قَلْبِي فِي مَزِيدِ

وأنت أخي الغريب عن عبق الديار، إن استطعت أن تستنسخ من وطنك شيئاً، فاستنسخ روائحه وألوانه، وازرع في غرفتك نبتة من نبات أرضك، وعلق على جدارك علم بلدك،

فهذه الأشياء الصغيرة تصنع لك وطنًا مصغراً في غربتك، وتخفف عنك مرارة الحنين،
وتجعل من غرفتك محراب ذكرى، تلجأ إليه كلما اشتد بك الشوق.
واعلم أن هذه الروائح والألوان والطقوس، هي التي تجعلك وقياً لوطنك، وتذكرك دائماً أنك
منه وإليه راجع، وليس في ذلك ضعف، بل هو دليل قلب حي، وروح وفية، ونفس أبية،
فالغريب الذي لا يشاق إلى رائحة تراب أرضه، ولا يحن إلى طعام أمه، هو غريب عن نفسه
قبل أن يكون غريباً عن وطنه، فلا تخجل من دمعة نزلت إن شممت رائحة مألوفة، ولا
تستخف بذكرى تستدعيها نعمة عابرة، ولا تستنكر حنيناً يثيره لون غروب، تلك هي مفاتيح
القلب، وتلك هي محاريب الذكرى، وتلك هي الزاد الذي يبقى معك حيثما حللت
وارتحلت.

الفصل الرابع عشر

(بريدُ الدار: ما بين دمعة فرح وانكسار)

هذا فصلٌ تقف فيه على اللحظة التي يقف فيها قلب الغريب بين السماء والأرض، حين يصله خبر من دياره، إما أن يطير به فرحًا ولا يجد من يشاركه إياه، وإما أن يهوي به حزنًا ولا يجد من يواسيه فيه، وفيه تتعلم كيف يعيش الغريب أفراحه وأحزانه، وكيف يكون الدعاء جسرًا يصل به إلى أحبته، وكيف تكون الدموع بريدًا يحمل أشواقه إلى الدار.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] تأمل كيف أن نقص النفس والأموال يأتي في سياق البلاء العام، وكيف أن البشارة بالصبر تأتي بعده، فالغريب الذي يفقد حبيبًا وهو بعيد، والذي يناله نقص في ماله أو أهله وهو في ديار الغربة، داخل في هذه الآية، وهو أولى بالبشارة إن صبر واحتسب، فكل دمعة تذرّفها على خبر حزين أتاك من بعيد؛ هي في ميزانك، وكل حسرة تعتصر قلبك ولا تستطيع معها فعل شيء؛ هي قربة إلى الله.

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فجعل قولهم «حسبنا الله ونعم الوكيل» حصنًا لهم من الخوف، وهذا هو سلاح الغريب الذي يأتيه الخبر المحزن من بعيد، لا يستطيع الوصول، ولا يملك النفع، ولا يقدر على الدفع، يقولها بقلب ممتلئ باليقين: «حسبي الله ونعم الوكيل»، فيكون الله حسبه ووكيله ومعينه، يكفيه همه، ويجبر كسره.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^١ تأمل هذا الدعاء النبوي، كيف يذكر المؤمن بأن العيش الحقيقي في الآخرة، وأن ما في الدنيا من فراق وحزن وفقد، إنما هو عابر لا يدوم، فالغريب الذي يبلغه خبر الفقد، يرفع قلبه بهذا الدعاء، فيخف عنه بعض ما يجد، وتطمئن نفسه بأن اللقاء في الآخرة، وأن العيش الحقيقي هناك.

وقد قالت العرب في أمثالها عن أخبار الغائب: «الْبَعِيدُ تَصْبِحُ أَخْبَارُهُ أَشَدَّ وَقَعًا» يضربونه للدلالة على أن أخبار الغائب تكون أشد وقعًا على القلب من أخبار الحاضر، لأنها تأتي مفاجئة، ولا يجد المرء سبيلًا إلى تداركها، وأصله أن رجلاً كان في سفر بعيد، فبلغه موت أمه، فسقط مغشياً عليه، ثم أفاق وقال: «الْبَعِيدُ تَصْبِحُ أَخْبَارُهُ أَشَدَّ وَقَعًا، لَأَنْهَا تَأْتِي وَلَا نَمْلِكُ مَعَهَا رَدًّا وَلَا دَفْعًا» فجرت مثلاً، وهو أن الغائب لا يملك من أمره شيئاً، فإذا جاءه الخبر المحزن، كان وقع الصدمة عليه مضاعفاً.

وقالوا أيضاً: «عَيْنُ الْغَائِبِ تَبْكِي بِقَلْبَيْنِ» يضربونه لوصف حال الغريب الذي يبكي لفقد حبيب من بعيد، فيجتمع عليه ألم الفراق وألم الفقد معاً، وأصله أن امرأة مات زوجها وهو في سفر بعيد، فكانت تبكي بكاءً شديداً ومراً، وقالت: «عَيْنُ الْغَائِبِ تَبْكِي بِقَلْبَيْنِ، قَلْبٌ عَلَى الْفَقْدِ، وَقَلْبٌ عَلَى الْغُرْبَةِ» ومعناه أن الغريب تجتمع عليه أحزان ألم الفقد وألم البعد والشوق.

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما جاء في قول النبي ﷺ: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، حديث رقم:

ولأخبار الدار في حياة الغرباء قصص وأخبار نفيض بالعبرة، وتدل على أن الغريب يعيش حياته بين جدران الغربة وقلبه معلق بأخبار الدار: يُروى أن رجلاً من أهل البصرة خرج تاجرًا إلى خراسان، فأقام بها سبع سنين، وكان يرسل إلى أهله الكتب، ويتلقى منها الأخبار، فجاءه ذات يوم رسول يحمل كتابًا من أهله، ففتحه فإذا فيه خبر موت ابنه الأكبر، فقرأ الكتاب، ثم طواه، وسكت ساعة، ثم قال للرسول: «كيف كان موته؟» قال: «مرض ثلاثة أيام ثم مات»، قال: «فهل دفنتموه؟» قال: «نعم»، قال: «فهل بكته أمه؟» قال: «بكت حتى عميت»، عندها بكى الأب، وقال: «أما والله لولا أنني في غربة، وأني لا أملك لهذا الأمر ردًا، لكنت أول من يبكي»، ثم قام إلى متاعه، فأخرج ثوبًا كان قد اشتراه لابنه، فمزقه، وجلس يبكي، وكان يقول بعدها: «ذلك اليوم مات قلبي في الغربة، وما عدت أفرح بشيء بعدها».

ويُروى أيضًا: أن رجلاً من أهل دمشق خرج إلى الأندلس في تجارة، وكان له أخ صغير يحبه حبًا شديدًا، فجاءه كتاب من أهله يخبرونه بأن أخاه قد مات، فقرأ الكتاب، ثم سقط على وجهه، وبقي أيامًا لا يأكل ولا يشرب، ثم قام فجمع ماله وترك تجارته، وعاد إلى دمشق، فلما دخل داره سأل عن قبر أخيه، فذهب إليه، وجلس عنده يبكي، وقال: «يا أخي، خرجت من عندك رجلاً، وعدت إليك ميتًا، ما أسعدك يا أخي، مت في أهلك وبين ذويك، وأنا مت في غرتي وبين قوم لا يعرفونني»، فبكى كل من سمعه.

وقيل أيضًا: إن امرأة من الأعراب كان زوجها في سفر بعيد، فجاءها من يخبرها بأن زوجها قد مات في الغربة، فلم تصرخ، ولم تبك، بل قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله

الذي ابتلاني بالصبر»، ثم قامت، وجمعت أولادها، ولبست ثياب الحداد، فلما كان الليل،

تسللت إلى الصحراء، وجلست في ضوء القمر، وأنشأت تقول:

أَتَانِي بَرِيدُ الدَّارِ يَحْمِلُ نَعِيَهُ * فَلَمْ أَذْرِ أَبْكَيَ أُمَّ أُصَلِّيَ عَلَيْهِ
فَإِنِّي غَرِيبَتُهُ وَمَا زَالَ غَائِبًا * فَكَيْفَ أُصَلِّي بَعْدَ مَوْتِي عَلَيْهِ

فسمعها ابنها الأكبر، فجلس بجانبها وبكى معها، قالت: «لا تبك يا بني، فإن أباك مات غريبًا، ولكن له عند الله الأجر الوفير».

ويروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «بلغني وأنا في بلاد الهند أن أبي قد مات في المغرب، فجلست وحدي، وبكيت حتى لم أستطع البكاء، ثم قمت إلى الصلاة، ودعوت الله أن يغفر له، وأن يجمعه بي في الجنة، وكنت كلما تذكرته بعدها، صليت ركعتين، وأهديت ثوابهما له، وكان ذلك عزائي الوحيد في غربتي».

وقد وصف الشعراء حال الغريب الذي تصله أخبار الديار، وجعلوا من ذلك ديوانًا للحنين والالم، قال بعضهم يصف حاله حين جاءه خبر الفراق:

بَرِيدُ الدَّارِ جَاءَ بِغَيْرِ أَهْلِي * فَأَبْكَانِي وَأَضْحَكَ كُلَّ خَلِي
وَقَالَ لِي: اغْلَمْنِي أَنَّ الْأَحْبَابَ * قَدْ ارْتَحَلُوا عَنِ الدُّنْيَا وَخَلُّوا

وقال آخر يصف فرحته بخبر سار أتاه وهو بعيد:

وَلَمَّا جَاءَنِي خَبْرٌ سَعِيدٌ * مِنْ الدَّارِ الَّتِي قَدْ غَبْتُ عَنْهَا
بَكَيْتُ مِنَ السُّرُورِ وَلَمْ أَجِدْ لِي * مُشَارِكًا فِي الفَرَحِ إِلَّا الدَّمْعَ مِنْهَا

وقال ثالث يصف اشتياقه إلى أخبار الدار:

أَحَبُّ كِتَابِ الْأَهْلِ لَوْ كَانَ مُخْبِرًا * بَأْتُهُمْ فِي خَيْرِ عَيْشٍ وَصِحَّةٍ
فَأَفْرَحُ إِذَا جَاءَ الْكِتَابُ مُبَشِّرًا * وَأُحْزَنُ إِذَا جَاءَ الْكِتَابُ بِمِحْنَةٍ

وأنت أخي الغريب عن أوطانه، وأنت بعيد عن أهلك، لا تدري متى يأتيك الخبر السار
فتفرج، ولا متى يأتيك الخبر المحزن فتنبض - حاشانا الله وإياك وسلمنا من سيئ
الأخبار-، خصص وقتاً تتواصل فيه مع أهلك، تطمئن عليهم، واعلم أن الغربة لا تقطع
الأواصر، ولكنها تزيدها متانة إن أحسنت التعامل معها، فكن قريباً من أهلك بالدعاء
والاتصال وإن بعدت بك الديار، وكن حاضراً في أفراحهم بالرسائل، وأحزانهم بالمواساة،
وإن لم تحضر جسدك، فالقلب يصل حيث لا تصل الأقدام، والدعاء ينفع حيث لا تنفع
الأموال.

ولا تستحي من دمعة تنحدر، ولا تخجل من عبرة تفيض بها عيناك حين تسمع صوت من
تحب، فتلک الدمعة هي رسالتك إليهم، وتلك العبرة هي حنينك الذي لا ينقطع، ولعل الله أن
يكافئك على حزنك في غربتك، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،
فإن جاءك الخبر السار فاحمد الله، وإن جاءك الخبر المحزن فاصبر واحتسب.

الفصل الخامس عشر

(دُئِنُ الْغَرِيبِ، بَيْنَ تَوَقُّعَاتِ الْأَهْلِ وَحِسَابِ الْوَاقِعِ)

هذا فصلٌ تُقف فيه على عبءٍ خفيٍّ لا يراه أهلُ الغربةِ إلا إذا عاشوه، ولا يدركه البعيدون عنهم إلا إذا قاسوه، إنه الثقلُ الذي يحمله المغترب على عاتقه، لا من وعثاء السفر ولا من مشقة العمل؛ بل من توقُّعات الأهل والأصحاب المنتظرين، وأحلام المرسلين، وقائمة الطلبات التي تطول كلما طال البعاد، إنه "دُئِنُ الْغَرِيبِ" الذي لا يسجله دائن، ولا يحرره كاتب، ولكنه يُفرض فرضاً، ويُنتظر انتظاراً، فيعيش صاحبه بين رغبة في العطاء وواقع لا يسعف، وبين حب الأهل وخوف الخذلان.

قال ربنا سبحانه آمراً بالعدل في العطاء، ومبيناً أن اليد لا ينبغي أن تمسك دون إنفاق، وأن تكون مبسوطاً بالمعروف دون إسراف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] تأمل كيف أن الله أمر بالقصد والاعتدال، فلا إغلاق لليد حتى كأنها مربوطة إلى العنق، ولا بسط لها بلا حساب فتتالك الحسرة والملامة، وهذا هو عين ما يعيشه الغريب: إما أن يبسط يده لكل طلب فيصير محسوراً منقطعاً، وإما أن يغلقها فيُلام ويُعاب وتُساء به الظنون، فيقف حائراً بين الملامة والحسرة، فما أحكم هذه الآية! وما أصدقها على حال المغترب الذي ينتظره أهله وأصدقائه بفارغ الصبر، وربما يطلبون منه ما لا يملك، ويحسبون أن الدنيا في يده، والذهب والأطيان تحت ملكه.

قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فجعل التكليف في حدود الوسع والطاقة، وهذه قاعدة ينبغي للغريب أن يطبقها عملياً، وأن يذكرها لأهله وأحبائه بلطف وأدب، فليس مطلوباً منه أن يهلك نفسه لیسعد غيره، ولا أن يُتعب بدنه ليربح سواه، وإنما عليه أن يعطي بقدر ما يستطيع، ويمنع بقدر ما يضطر، ويوازن بين حقوق الأهل وحقوق النفس توازناً لا إفراط فيه ولا تفريط، فإن تيسر له الرزق الواسع ورغد العيش؛ فينبغي أن كريماً لبياً، يغني أهله عن مذلة السؤال، فالكريم من يعطي ويمنح قبل أن يُسأل، فارفع عنهم الحرج واحفظ ماء وجوههم، لا تكن أنت في رغد من العيش تاركاً أهلك وعائلتك في ضيق وضنك، واعلم أنك تعود بأجور مضاعفة: أجر البر، وأجر الصلة، وأجر الصدقة، وأجر الإحسان والأكرام عن ذل المسألة ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

قال سبحانه مبيناً مبدأ النفقة على قدر السعة: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] فجعل النفقة على قدر الرزق، فمن وسع الله عليه وسع على غيره، ومن ضاق عليه رزقه أنفق مما عنده ولم يُكلف فوق طاقته، وهذه رحمة إلهية، وتخفيف رباني، ينبغي للغريب أن يستند إليه في حوارهِ مع أهله خصوصاً، ومع أحبائه عموماً، حين يطلبون منه ما لا يطيق.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ» تأمل كيف أن النبي ﷺ جعل البدء بمن يعول، فالغريب الذي له أهل يعولهم في غربته من زوجة وأولاد، هم

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، حديث رقم: ١٤٢٦

أولى بنفقته من الأهل البعيدين، ثم تأمل كيف أن اليد العليا المعطية خير من اليد السفلى الآخذة، فالغريب الذي خرج ليكون يده عليا، ينبغي ألا يرجع ويده سفلى هي التي تأخذ، بل يحفظ ماء وجهه، ويعطي بقدر ما يستطيع، ويحفظ نفسه عن المذلة، فكم من غريب تغرب وترك الأهل ليوسع عليهم وليكون لهم عائلاً فكان عليهم عالية؛ يأخذ ولا يعطي .

وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ اسْتَعْنَىٰ أَعْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَ أَعْفَهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْنَىٰ أَعْنَاهُ اللَّهُ»^١ تأمل هذا الحديث الذي يعلم المؤمن أن الاستغناء عن الناس عبادة، وأن التعفف عن السؤال فضيلة، فالغريب الذي يطلب منه أهله المال بالحاح، إن استغنى عن سؤالهم وأعطاهم مما عنده بلا منة؛ كان ذلك أكرم له وأعظم لأجره، وإن عجز؛ فالاستغفاف خير له من أن يسأل الناس أو يستدين .

وقد قالت العرب في أمثالها عن العطاء والتوقعات: «أَعْطِ أَخَاكَ مَا يَسْأَلُ، وَلَا تَسْأَلْهُ مَا يُعْطِي» يضربونه للدلالة على أن الإحسان ينبغي أن يكون بلا مقابل، وأن الأخوة تقتضي العطاء بلا منة، وأصله أن رجلين كانا أخوين، فسأل أحدهما الآخر مالاً، فأعطاه ولم يسأله متى يرده، فقالت أمهما: «أَعْطِ أَخَاكَ مَا يَسْأَلُ، وَلَا تَسْأَلْهُ مَا يُعْطِي» فجرت مثلاً، ومعناه أن العطاء الحقيقي هو ما كان بلا حساب ولا انتظار مقابل، وهذا ما يطلبه الأهل من المغترب غالباً .

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم: ١٤٦٩

وقالوا أيضاً: «رُبَّ مُعْطٍ يُسَاءُ بِهِ الظَّنُّ» يضربونه للدلالة على أن المعطي قد لا يفهم قصده، وقد يُتهم بالقلّة أو البخل وهو معطٍ في الحقيقة، وأصله أن رجلاً كان يعطي أهله ما يستطيع، فكانوا يتسخطون ويقولون: ما هذا بالقليل! حتى ضاق بهم ذرعاً فقال: «رب معطٍ يساء به الظن، أعطيك ما أقدر عليه، فكأنّي لا أعطيك شيئاً» فصارت كلمته مثلاً، ومعناه أن كثيراً من المغترّبين يعطون أهلهم ما يستطيعون، فيتهمون بالتقصير، ويُساء بهم الظن، وهم في الحقيقة يكدون ويكدحون ليل نهار، ويفعلون ما بوسعهم.

وقالوا أيضاً: «مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْمَالِ كَفَى، وَمَا تَعَسَّرَ عَنِّي» يضربونه للدلالة على أن المتيسر من المال يكفي للحاجة، وما تعسر على المرء فهو فوق طاقته، وأصله أن رجلاً كان يطلب من أخيه مالا كثيراً، فأعطاه أخوه نصف ما طلب، وقال: «ما استيسر من المال كفى، وما تعسر عني» ومعناه أن الغريب ينبغي أن يقدم ما تيسر، ولا يحمل نفسه ما تعسر، فذلك أبقى له ولأهله.

ولتوقعات الأهل في حياة الغرباء قصص تدل على أن «ذئب الغريب» هو أثقل الديون، لأنه ذئب المشاعر والواجبات، لا ذئب الأوراق والسندات: يُروى أن رجلاً من أهل مصر خرج إلى بلاد الشام يطلب رزقاً، وكان له أبوان وإخوة صغار، فكان يرسل إليهم كل شهر ما يكفيهم ويزيد، ثم تزوج في الشام، ورزق أولاداً، فصار رزقه لا يكفي إلا أسرته الصغيرة، فكتب إلى أهله يعتذر عن إرسال المال كما كان يفعل، ويعدّهم بأنه سيعود قريباً، فما كان منهم إلا أن غضبوا، وأرسلوا إليه كتاباً يقولون فيه: «ألهتك زوجتك عنا! وألهاك أولادك عن أهل بيتك!» فبكى الرجل، وجمع ما استطاع من مال، وأرسله إليهم مع كتاب يقول: «يا أهلي،

والله ما أهتني عنكم زوجة ولا ولد، ولكن ضاق الرزق واتسعت الحاجة، ولو كان في يدي مال لبعثت به، ولكني لا أملك إلا هذا القليل، فاقبلوه مني، ولا تسيئوا بي الظن، فإنني في الغربة أكدح ليل نهار، ورب معطٍ يساء به الظن»، فلما قرأوا كتابه بكوا جميعاً، وفهموا عذره.

وقيل أيضاً: إن تاجرًا من أهل الحجاز خرج إلى العراق، فكان يرسل إلى أهله الأموال الوافرة، حتى ظنوا أنه صار من كبار الأغنياء، فصاروا كلما احتاجوا شيئاً طلبوه منه، حتى صار يبيع من متاع بيته ليوافيهم بطلباتهم، فلما زارهم بعد سنين، رأى حالهم لم يتغير، وسألهم: «أين ذهبت الأموال التي أرسلتها؟» قالوا: «ذهب أكثرها في الحاجات، وبقي بعضها دينا علينا»، فجلس يبكي، وقال: «أرسلت إليكم مالي كله، وعدت أنا فقيرًا، فمن يسد ديني؟»، فكان يقول بعدها: «لا تفرطوا في الإرسال، فإن الأهل يطلبون ولا يحسبون، والغريب يعطي ولا يردون».

ويروى أن شابًا من أهل المغرب خرج إلى بلدٍ يطلب علمًا، وكان أهله يرسلون إليه ما يكفيه، حتى تخرج وبدأ يعمل، فصار يرسل إليهم شهريًا ما زاد عن حاجته، وكان قليلًا في أول الأمر، فكتب إليه أبوه مرة: «يا بني، لقد كنا نرسل إليك وأنت طالب، فكيف ترسل إلينا هذا القليل وأنت موظف؟»، فحزن الشاب، وكتب إلى أبيه: «يا أبت، الغربة دار نفقة، وما يبقى لي بعد الإيجار والطعام والمواصلات إلا هذا القليل، فأرسلته إليك، أما أن تعاتبني على القلة، فوالله لو أعطيتك راتبي كله لأعطيتك، ولكن لي حاجات لا بد منها، كالإيجار

والطعام»، فقرأ الأب كتاب ابنه، ثم بكى، وقال لأهله: «لا تكتبوا إليه بشيء بعد اليوم، فإن الغربة تأكل أكثر مما يظن الناس».

وقيل في أخبار السلف: إن رجلاً من التابعين كان يعمل في بلاد بعيدة، ويرسل إلى أهله ما تيسر، فجاءه رجل من قومه وقال له: «إن أهلك يقولون: إنك مقصر في حقهم»، فقال: «أما علموا أنني أكل الخبز اليابس هنا ليشبعوا هم هناك؟ أما علموا أنني أمشي حافيًا هنا ليكنسوا هم هناك؟»، ثم بكى، وقال: «اللهم إن كانوا يظنون بي سوء، فاغفر لهم، وارزقني من فضلك حتى أرضيهم»، فما مر شهر حتى فتح الله عليه رزقًا واسعًا، فأرسل إلى أهله ما أرضاهم.

قال أحد الشعراء يصف حال الغريب بين توقعات الأهل وواقعه:
يُظَنُّ الْأَهْلُ أَنَّ الْغَرْبَ دَارُ غِنَى * وَأَنَّ الْغَرِيبَ فِيهَا الْمَالُ يَجْمَعُهُ
وَمَا يَدْرُونَ أَنَّ الْغَرْبَ يَأْكُلُ مَا * يُجْمَعُ، ثُمَّ يَنَادِي: هَلْ مِنْ مَانِعِهِ؟
وقال آخر يصف الغريب الذي يعطي ولا يفهم:

يَلُومُ الْأَهْلُ فِي عَطَائِي وَيَشْتَكُو * قِلَالَةَ مَا أُهْدِي، وَمَا أَنَا مُكْتَرُ
وَلَوْ أَنَّهُمْ يَدْرُونَ حَالِي لَعَذَرُوا * وَلَكِنَّهُمْ فِي غَيْبِ حَالِي يُقَصِّرُوا
وقال ثالث:

عَلَى الْغَرِيبِ دَيْنٌ لَيْسَ يَعْرِفُهَا * إِلَّا الَّذِي عَاشَ فِي دَارِ الَّذِي يَصِفُ
دَيْنُ الْأُبُوَّةِ، دَيْنُ الْأَهْلِ، دَيْنُ رَجَا * يَأْتِي مِنَ الْبُعْدِ، لَا يُقْضَى وَلَا يَقْفُ

فيا غريب الدار والوطن، وأنت تعيش هذا الصراع اليومي بين طلبات الأهل وقلة ذات اليد، اعلم أنك لست وحدك في هذا، وأن كل غريب قبلك قد ذاق هذه المرارة، وشاركك هذه الحيرة، ليس مطلوبًا منك أن تكون ثريًا، ولا أن تتغنيَ غيرك وتفقر نفسك، ولا أن تحمل هموم الدنيا كلها على عاتقك، إنما المطلوب منك التوازن، والنية الصادقة، والكلام الطيب، فإذا طلب أهلك ما لا تملك، فلا تغضب، ولا تقطع حبل الوصل، بل أخبرهم برفق، واشرح لهم حالك بأدب، واعد لهم بما تستطيع، فإن كان في يدك قليل فأرسله، وإن لم يكن في يدك شيء فادع لهم ولنفسك بالتيسير والسعة، وتذكر قوله ﷺ: «اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى» فاجعل يدك هي العليا ما استطعت، ولا تجعل نفسك في موضع السؤال أبدًا، واستعن بالله، واطلب من فضله، وأكثر من الدعاء، فإن الله كريم، يعطي من يشاء بغير حساب، واصنع لنفسك ميزانية، واجعل لأهلك منها نصيبًا معلومًا .

واعلم أن توقعات الأهل ليست دائمًا جورًا أو طمعًا، بل هي جزء من الحب والثقة والعطاء، يرونك أفضلهم حالًا وأكرمهم نفسًا، فينتظرون منك ما يليق بما يرونه فيك، فلا تخيب آمالهم، ولا تحزن إن زادت طلباتهم، ولا تغضب إن أساءوا الظن، بل عاملهم بالرفق، وذكرهم بواقعك وحياتك، واجعل بينك وبينهم جسرًا من الصدق والوضوح، فرب كلمة طيبة شرحت صدرًا، ورفعت ضغطًا، وأزالت سوء فهم.

وختمًا أوصيكَ أخي الغريب: لا تجعل توقعات أهلك حِملاً يثقل كاهلك، ولا عبأ يعكر صفو غربتك، وتذكر أن الكريم هو من يعطي قبل أن يُسأل؛ وهو من يكفي غيره مسألته،

واصدق مع أهلك في حديثك، تكن قد رفعت عن نفسك دينًا لا يُكتب، وحملاً لا يُرى،
وضغطاً لا يدركه إلا من عاشه.

واعلم أن برك بأهلك ليس في المال وحده، بل في الدعاء لهم، والاطمئنان عليهم، والوصل
الدائم، والكلمة الطيبة، وقرب الزيارة إن استطعت، فليس كل عطاء مالاً، وليس كل برٍّ
درهماً.

الفصل السادس عشر

(غُصْنٌ فِي مَهَبِ الرِّيحِ، الأهل والولد في ديار الاغتراب)

تقف في هذا الفصل على حال الأسرة التي تسير مع عائلها في دروب الغربة، أو تنشأ في بلد غير مسلم، وفيه تعلم كيف يحفظ الوالدان لأبنائهما دينهم ولسانهم وهويتهم، فلا تذوب الأسرة في بحر الثقافات، ولا يضيع الأولاد بين لسانين، ولا يغترب الأبناء عن أصولهم وهم في حضن آبائهم.

قال تعالى أمراً المؤمنين بحفظ أنفسهم وأهليهم من موجبات العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] تأمل كيف بدأ الله بنفس المؤمن، ثم شئ بأهله، فجعل وقاية الأهل من النار أمانة في عنق كل مسؤل، ووقايتهم من النار أن تحفظ لهم دينهم، وتصون لهم لسانهم، وتغرس فيهم هويتهم، وتقيهم ذوبان الإيمان في غربة الديار، فالمسؤولية في بلاد الاغتراب مضاعفة، والأمانة في ديار غير الإسلام عظيمة.

وقال سبحانه في آية جامعة: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] فانظر كيف أن الأنبياء كانوا يوصون أبناءهم بالدين، ويخافون عليهم من الضلال، ويحرصون على أن يبقى الإسلام حيًا في قلوب ذرياتهم، فإذا كان إبراهيم ويعقوب يخافان على أبنائهما وهم بين أهليهم، فكيف بغريب يعيش بين قوم لا يدينون بدينه، ولا يتكلمون بلسانه؟ لا شك أن أماته أعظم، ومسؤوليته أثقل.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» تأمل هذا التوجيه النبوي الكريم، كيف جعل الرجل راعياً في أهله ومسؤولاً عنهم، فالغريب الذي يعيش بين قوم لا يعرفون دينه، مسؤوليته أمام الله أن يرضى أهله رعاية تحفظهم من الضياع، وتمنعهم من الانحراف، وتقيمهم على طريق الاستقامة.

وكما أن الأرض الخصبة ينبت فيها الزرع والنبت والثمر، فإن الأرض البور لا تُخرج حرثاً ولا نباتاً ولا ثمرًا، كذلك المجتمع والبيئة المحيطة هما ضمن أسس النشأة والتربية الصالحة، وانظر قول ربنا لنبيه الكريم نوح عليه السلام بعد هلاك ولده مع من هلك: ﴿قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود: ٤٦) فتأمل كيف أثرت البيئة والمجتمع سلباً على ولد النبي الكريم -عليه السلام-، فحاول أخي الغريب إيجاد عائلتك في بيئة صالحة، وسط مجتمع إيماني يربي معك، وفي حديث قاتل المئة نفس شاهد على ذلك، تأمل قول العالم الفقيه النبيه، لما رأى صدق توبة هذا الرجل في أرض بور وتيه، قال له: «ولكن، اخرج من أرضك فإنها أرض سوء، واذهب إلى أرض كذا فإن فيها أناس صالحين يعبدون الله؛ فاعبد الله معهم» فانظر كيف تؤثر البيئة الفاسدة على الضياع واللغو والطغيان؟ وكيف تعين البيئة الصالحة على الصلاح والثبات والإيمان؟ فأنت أخي الغريب الراعي والمسؤول، وأنت المؤمن على من تعول.

(١) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم: ٨٩٣

وقد قالت العرب في أمثالها عن الأهل والولد: «الوَلَدُ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِ وَالِدِهِ» يضربونه للدلالة على أن الابن وديعة عند أبيه، والأب مؤتمن عليه، وأصله أن رجلاً كان له ابن صغير، فتهاون في تربيته، فشب الابن عاقاً، فعاتبه شيخ قومه قائلاً: «الولد أمانة في عنق والده، فمن ضيع الأمانة، عوقب في الدنيا قبل الآخرة».

وقالوا: «مَنْ شَابَهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ» وهو مثل قديم يضرب للدلالة على أن الابن حين يسير على نهج أبيه، لا يكون ظالماً لنفسه ولا لأبيه، بل يكون باراً حاملاً للآرث، وأصله أن فتى من الأعراب سار في طريق أبيه في الكرم والشجاعة، فمدحه قوم فقالوا: «من شابه أباه فما ظلم» ومعناه أن تشبه الابن بأبيه في الخير شرف، وأن الحفاظ على إرث الآباء واجب.

وقالوا أيضاً: «كُلُّ طَيْرٍ يَحِنُّ إِلَى عَشِيهِ» يضربونه للدلالة على أن الأولاد يميلون إلى أصولهم وينجذبون إليها، فلا بد من بقاء العش مألوفاً لهم، حتى لا يبحثوا عن أعشاش غريبة، ومعناه أن الأسرة في الغربة ينبغي أن تكون عشاً دافئاً، يحن إليه الأولاد، ويجدون فيه دفء الهوية.

وللأسرة المغتربة في حياة المسلمين قصص وأخبار فيها دروسٌ وعبرٌ، تدل على أن الحفاظ على الأولاد في ديار الغربة جهادٌ وبناءٌ وسهرٌ: يُروى أن جماعة من المسلمين هاجروا إلى الحبشة في أول الإسلام، ومعهم أبناؤهم، فخافوا على أولادهم من النصارى، فكانوا يعلمونهم القرآن في بيوتهم سراً، ويحفظونهم العربية، ويقصون عليهم أخبار النبي ﷺ، فلما عادوا إلى المدينة، كان أولئك الأبناء يحملون القرآن في صدورهم، والعربية على ألسنتهم، فسئلت أم من أمهاتهم: كيف حفظت ابنك في الحبشة؟ قالت: «ما تركته يلعب مع أطفالهم، ولا يأكل

من طعامهم، ولا يتعلم طباعهم، ولا يأخذ من عاداتهم، حتى عدنا إلى دار الإسلام، فإذا هو عربي اللسان، مسلمٌ قلبه مليءً بالإيمان».

ويُروى أن أسرة مسلمة من الأندلس هاجرت إلى بلاد النصارى بعد سقوط غرناطة، فحملوا معهم أطفالاً صغاراً، فخاف الأب عليهم من ضياع الإيمان، فكان كل ليلة يجمعهم حوله، ويقرأ عليهم القرآن، ويعلمهم العربية، ويقص عليهم أمجاد الأجداد، فلما كبر الأولاد، كانوا يتكلمون العربية، ويقرؤون القرآن، ويعرفون أنهم مسلمون من أصل عريق، فلما سأل أحدهم أباه: لماذا كنت تتعب معنا كل ليلة؟ قال الأب: «كنت أخاف أن تموتوا وأنتم لا تعرفون من أنتم، فأردت أن تعيشوا مسلمين، وتموتوا مسلمين».

وقيل أيضاً: إن رجلاً عربياً مسلماً خرج إلى بلاد الأعاجم في تجارة، ومعه زوجته وولده، فنزلوا في بلدة ليس فيها مسجد ولا مسلم، فاشترى بيتاً، وجعل فيه غرفة يصلي بها، وعلم ولده القرآن والعربية، فمر به رجل من أهل البلد فقال: «يا هذا، لماذا تغلق على ابنك ولا تتركه يلعب مع الصبيان؟» قال: «أخاف عليه من الضياع، فإن ابني غصن في مهب الريح، إن تركته وحده عصف به الأعصار، وإن قيدته بجذور دينه ولغته، اشتد عوده، وطاب ثمره». فصارت كلمته (غصنٌ في مهبِّ الريح) مثلاً بين المغتربين.

ويُروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «رأيت في بلاد الهند جماعة من المسلمين، قد ولدوا هناك، ونشأ أولادهم بين الهنود، فنسوا العربية، وضيعوا الصلاة، ومالوا إلى عادات الهنود، فحزنت عليهم، وسألت شيخاً منهم: كيف وصلتكم إلى هذا الحال؟ فقال: أهملنا الأولاد، فضيعناهم، ولو ربيناهم على الإسلام لما خرجوا منه».

وقال أحد الشعراء يصف أبا يحافظ على ولده:

أَبٌ فِي الْبِلَادِ الْبُعْدِ رَاعٍ لَأُسْرَةٍ * تَرَبَّى بِنَيْهِ فَوْقَ دِينِ النَّبِيِّ
يَعْلَمُهُمْ حُبَّ الْقُرْآنِ وَلُغَةً * بِهَا نَطَقَ الْمُخْتَارُ يَوْمَ الدَّعْوَةِ

وقال آخر يصف الأسرة المغربية:

أُسَيْرَةٌ فِي دَارِ غُرْبَةٍ قَوْمِهَا * تَحْفُ بِهَا الْأَخْطَارُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَلَكِنَّهَا بِالْوَحْيِ تَحْمِي نَفْسَهَا * وَبِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِّ تَنْتَبِي

وقال ثالث يصف حال الولد الذي ينشأ في الغربة بعيداً عن أصوله:

إِذَا لَمْ يَجِدْ غَضْنَ أُصُولًا تَرُدُّهُ * إِلَى أَصْلِهِ يَوْمَ الْعَوَاصِفِ يَذْهَبُ
فَكَمَ مِنْ قَتَى فِي الْغُرْبِ ضَاعَ لِسَانُهُ * وَكَمَ مِنْ قَتَى فِي أَهْلِهِ يَتَادَّبُ

فهذه دروس لي ولك أخي الغريب، فحافظ على رعيّتك، إن كنت قد خرجت بأهلك وولدك إلى بلاد أهلها على غير الإسلام، فاعلم أن الأمانة عظيمة، والمسؤولية جسيمة، لا تترك أولادك للشارع يُشكِّكهم ويرببهم، ولا للشاشات تعلمهم، ولا لأقرانهم يصوغونهم، بل كن أنت الراعي، وأنت المعلم، وأنت القدوة، اجعل من بيتك في الغربة جزيرة من الإيمان، ومسجداً للصلاة، ومدرسة للقرآن، علم أولادك أنهم مسلمون من أمة عريقة، وأن غربتهم مجرد وقت ويمضي، ثم يعودون إلى أصولهم العريقة، وتاريخهم العظيم.

لا تفرط في لسانك العربي، فعليه مدار القرآن، لا تفرط في الصلاة، فعليها مدار الدين، لا تفرط في الآداب الإسلامية، فعليها مدار حياة المسلم، اجعل لبيتك رائحة الوطن، بلسان

عربي تتحدثه، وقرآن يتلى، وعادات تحيا، فإذا كبر أولادك في هذه البيئة، خرجوا إلى المجتمع أقوياء بالله، ثابتين على دينهم، معززين بهويتهم، نافعين لأمتهم. واعلم أن الأسرة في الغربة قد تكون جنة ونعيماً، وقد تكون محنة وجحيمًا، فإن أحسنت تربيتهم، صاروا لك سنداً وعضداً، وكانوا خير سفير لوطنهم ودينهم، وإن أهملتهم؛ ضاعوا وضاع معهم دهر من التعب، وعمر من الغربة.

وأخيراً:

أخي الغريب عن دياره، كن لأهلك في الغربة سوراً واقياً، وغصناً راعياً، وشمساً هادية، لا تدع رياح الثقافات الفاسدة تعصف بغصون أولادك، ولا تترك أمواج العادات السيئة تجرف جذورهم، اجعل بيتك حصناً للإيمان، وواحة للسان، وروضة للقرآن، فإذا عدت إلى وطنك، عدت ومعك أسرتك مسلمة عربية، وإذا بقيت في غربتك، بقيت ومعك ذريتك مؤمنة نقية، وإذا مت في غربتك، تركت من بعدك جيلاً يحمل راية الإسلام، ويعتز بهويته، ويكون امتداداً لخير أمة أخرجت للناس.

الفصل السابع عشر

عُثْرَةُ الْغَرِيبِ، حِينَ تَحْذُكُ الدُّنْيَا وَأَنْتِ وَحْدُكَ

تقف في هذا الفصل على لحظة السقوط التي لا بد منها في درب كل مغترب، وتأمل كيف يتحول الفشل من نهاية موجعة إلى بداية جديدة، وكيف يصنع الألم من الغريب إنساناً أعمق وأصلب وأكثر فهماً للحياة، فالعثرة في الغربة ليست نهاية الطريق، بل هي استراحة ووقفة تعيد فيها ترتيباتك، تعود بعداً أكثر خبرة وصلابة.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۗ مَسَّ تِلْكَ الْأَنْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] تأمل كيف أن البأساء والضراء تكون طريقاً إلى الجنة، وكيف أن النصر يأتي بعد شدة، والفرج ينزل بعد كربة، فالغريب الذي يمر بعثرة أو فشل أو ضائقة، ليس منبوذاً ولا مغضوباً عليه؛ بل هو في طريق المؤمنين الذين سبقوه.

وقال سبحانه أيضاً في آية جامعة كما أشرنا سابقاً: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] كثر الوعد مرتين ليكون أبلغ في اليقين، فالعسر الواحد لا يغلب يسرين، والفشل الواحد لا يقاوم فرجين، فالغريب الذي يخسر تجارته، أو يغلق في وجهه باب الرزق، أو يفشل في دراسته، أو يخذله صديقه؛ ليس في نهاية الدنيا، بل هو في بداية اليسر الذي وعد الله به.

وقد قالت العرب في أمثالها عن العثرة والفشل: «رُبَّ كَسْرٍ أَنْفَعُ مِنْ جَبْرٍ» يضربونه للدلالة على أن بعض الكسور تكون نافعة لصاحبها، تعلمه وتقومه وتهذب طبعه، وأصله أن رجلاً كان يعمل في صناعة الزجاج، فانكسرت له آنية كان يصنعها منذ أيام، فحزن عليها، ثم لما أعاد صنعها خرجت أجمل مما كانت، فقال له معلمه: «لا تحزن على الكسر، فرب كسر أنفع من جبر، ورب هزيمة أعلم من نصر» فجرت مثلاً.

وقالوا كذلك: «عِنْدَ الصَّدْمَةِ يُعْرَفُ الْفَارِسُ» يضربونه للدلالة على أن الرجال لا يُعرفون في الرخاء، بل في الشدة والبلاء، وأصله أن قومًا خرجوا في غزوة، فلما اشتد القتال، فرَّ بعضهم وثبت بعضهم، فلما عادوا، قال كبيرهم: «عند الصدمة يعرف الفارس، وعند المحنة تُعرف الرجال».

وقالوا: «آخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ» يضربونه للدلالة على أن بعض العلاجات مؤلمة، لكنها تشفي، وأصله أن رجلاً مرض، فداواه الأطباء بأدوية مرة، فجزع، فقال له حكيم: «إن من الدواء ما هو أمر من الداء، وإن آخر الدواء الكي، فاصبر على مرارة الدواء، تظفر بحلاوة الشفاء».

وإليك قصص وأخبار من حياة الغرباء، نأخذ منها الفائدة، ومنها أن الفشل في الغربة هو بداية النجاح في كثير من الأحيان، يُروى أن تاجرًا من أهل الأندلس خرج إلى المشرق في تجارة عظيمة، فخسر ماله كله في بحر من بحور الطريق، وعاد غريبًا مفلسًا، لا يملك شيئًا، فجلس في مسجد قرطبة يبكي حاله، فمر به شيخ من شيوخ العلم، فراه على تلك الحال، فسأله، فأخبره، فقال الشيخ: «يا بني، لا تحزن، فإن هذه العثرة ليست نهايتك، بل هي بدايتك، أظن أن الشمس تشرق من غير ليل؟ أظن أن البحر يسكن من غير

عواصف؟ ابدأ من جديد، وثق بأن الذي أخذ منك المال، سيعوضك خيراً منه» فانتفض التاجر، وبدأ من جديد، يبيع في الأسواق ما يقل ويكثر، ويتعلم من كل عشرة درساً، فلم يمض عشر سنين حتى صار من كبار تجار الأندلس، وكان يقول: «لولا تلك العشرة، لكنت تاجراً عادياً، ولكنها علمتني كيف أقف بعد السقوط».

وقيل كذلك: إن طالب علم من بغداد رحل إلى نيسابور يطلب الحديث عند كبار شيوخها، وكان معه مال قليل، وجراب من كتب، فبينما هو في الطريق، سقط جرابه في النهر، ففقد كل ما كتبه طوال سنين، فجلس على ضفة النهر يبكي، وأيقن أن عمره قد ضاع، وهم بالعودة إلى بغداد، فجاءه رجل من أهل البلد، فرآه على تلك الحال، فقال: «يا فتى، لا تحزن، فإنك لم تفقد علمك، بل فقدت ورقاً كتبه، عد إلى الشيخ، فاستعد ما فاتك، تخرج أعلم مما دخلت» فعاد الطالب، وجلس إلى الشيخ، فأعاد سماع الدروس، فإذا به يفهم ما لم يكن يفهمه من قبل، ويفقه ما كان يخفى عليه، قال: «فكان سقوط جرابي في النهر خيراً لي من بقاءه، لأنني أعدت العلم من جديد، فصار لي فهم وعلم آخر».

ويروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «كنت في بعض أسفاري، وقد نزلت بلدة، ففقدت كل ما أملك، حتى ثيابي، فاضطرت أن أعمل في خدمة قوم حتى أتقوت. فشعرت أنني قد بلغت القاع، وليس بعد هذا القاع من نزول، ثم إنني تأملت حالي، فوجدتني قد صرت قوياً، بعد أن كنت ضعيفاً، جريئاً بعد أن كنت خجولاً، خبيراً بالدنيا بعد أن كنت غراً، فعرفت أن تلك العشرة هي التي صنعت مني ابن بطوطة الذي يعرفه الناس».

وللشعراء بَصَمْتَهُمْ فِي مَدْحِ الصَّبْرِ عَلَى الْعَثْرَاتِ، وَجَعَلَ الْفِشْلَ فِي الْغُرْبَةِ مَعْلَمًا لَا يَنْسَى، قَالَ

أحدهم يصف حال الغريب الذي عشر:

إِذَا سَقَطَ الْغَرِيبُ بِأَرْضِ قَوْمٍ * فَلَيْسَ يَتِيمُهُ إِلَّا صَبْرُهُ
فَإِنَّ الْعُثْرَ فِي دَرْبِ الْمَعَالِي * يُعَلِّمُ كَيْفَ يَنْهَضُ مَنْ أَصْرَهُ

وقال آخر يصف أن الكسر قد يكون بداية الجبر:

لَرُبِّ غَرِيبٍ قَدْ أَصَابَتْهُ نَكْبَةٌ * فَأَوْشَكَ أَنْ يَهْوِيَ وَيَنْهَارَ مِنْهَا
وَلَمَّا صَبَرَ صَارَتْ لَهُ تِلْكَ النَّوَى * جَنَاحًا بِهِ طَارَ الْبِلَادَ وَيَمَّهَا

وقال ثالث يصف حال من يخذله الناس في غربته:

إِذَا مَا خَذَلْتَ النَّاسَ غَرْبًا مُسَافِرًا * فَلَا تَيْأَسَنَّ فَاللَّهُ حَسْبُكَ نَاصِرُهُ
فَكَمْ مِنْ غَرِيبٍ ظَنَّ أَنْ لَا مُعِينَهُ * فَجَاءَ الَّذِي يَرْجُو وَجَاءَتْ بِشَائِرُهُ

فإذا حلت بك عشرة، أو غلق في وجهك باب، أو خسرت تجارة، أو فشلت في دراسة، أو

خذلك من كنت ترجوه، فلا تجزع ولا تياس، تذكر أن العشرة سنة في طريق المؤمنين، وأن

الصالحين قبلك قد ابتلوا حتى قالوا: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ تذكر أن الفشل ليس ضد النجاح، بل

هو خطوة إليه، وأن الكسر ليس نهاية الطريق، بل هو وقفة تلتقط فيها أنفاسك، ثم تنهض

أقوى مما كنت، واعلم أن العثرة في الغربة، على قسوتها، هي معلمك الأعظم، إنها التي

تعلمك الصبر، وتقوي عزمك، وتصلق شخصيتك، وتعمق فهمك للحياة، لولا العثرة لكنت

هشًا ضعيفًا، ولولا الفشل لما عرفت طعم النجاح، ولولا الخسارة لما قدرت الربح، إنها

مدرسة الأيام، وجامعة الدهر، التي لا تدخلها طوعاً، بل تدخلها قسراً، ثم تخرج منها متوجاً بشهادة الصبر والخبرة والعلم.

فلا تخف من العثرة، ولا تحزن عليها، بل قم من فوقها، وامسح الغبار عن ثيابك، واجمع جراح قلبك، وامض في طريقك، وتوكل على الله، فالله معك، والملائكة تستغفر لك، والأيام محملة بالفرج، ثق بأن بعد الليل فجرًا، وبعد العسر يسراً، وبعد العثرة قيامًا.

وأخيراً

أخي الغريب الذي أحبطته عشرة، لا تحسبنّ عشرتك نهاية، ولا تظننّ فشلك يدوم، إنها استراحة في درب طويل، ومحطة في سفر مديد، خذ منها درساً، واجعل منها قوة، واخرج منها بحكمة، فكم من غريب سقط فقام، وكم من كسير جبر فصار أقوى، وكن على يقين أن الذي أذن لك بالعثرة، قادر على أن يأذن لك بالنهوض، وأن الذي قدر عليك الفشل، قادر على أن يكتب لك النجاح، خذ من العثرة خطوة إلى التمكين، ومن الفشل حكمة وبداية للنجاح.

الفصل الثامن عشر

(العائدُ بخيرٍ كالغيثِ أصابَ)

تأمل في هذا الفصل كيف يعود المغترب إلى وطنه محملاً بالذخائر، مكللاً بالخبرات، مرفوع الرأس بما كسب وما تعلم، فما الغربة إلا محطة زاد، يملأ فيها الغريب جرابه علماً وعملاً ومالاً وحكمة، ثم يعود إلى أهله رسولاً يحمل إليهم ما جناه، فيكون سبب نهضتهم، وباب رفعتهم.

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] تأمل كيف جعل الله الخروج في الأرض لطلب التفقه في الدين وسيلة، وجعل العودة إلى القوم للإنذار والتعليم غاية، فالغربة في هذه الآية ليست هرباً، بل هي مهمة، والمسافر ليس تائهاً، بل هو رسول، يخرج المرء من قومه جاهلاً أو محتاجاً، ثم يعود إليهم عالماً أو كاسباً، فيجمع بين خيري الدنيا والآخرة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا تَقِيَّةٌ قَبْلَ الْمَاءِ فَأُتِبَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ...» تأمل هذا المثال النبوي البديع، كيف جعل النبي ﷺ العلم كالغيث يحيي الأرض الميتة، وجعل حملة العلم الذين يتعلمون ثم يعودون إلى أقوامهم يعلمونهم، كالأرض الطيبة التي تشرب الماء فتبت الكلاً

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، حديث رقم: ٧٩

والعشب، فأنت أيها الغريب، إن عدت إلى أهلك ومعك علم أو حرفة أو مال أو خبرة،
فأنت كالغيث أصاب أرضاً ميتة فأحيها .

وقد قالت العرب في أمثالها عن فضل العائد المحمل بالخير: «العائدُ بخيرٍ كالغيثِ أصابَ»
يضربونه للرجل يغيب ثم يعود وقد حمل معه ما ينفع قومه، وأصله أن رجلاً خرج في تجارة
فأطال الغيبة، ثم عاد محملاً بالمال والبضائع والأخبار، ففرح به أهله، فقالت امرأة منهن:
«العائد بخير كالغيث أصاب» فجرت مثلاً .

وقالوا كذلك: «السَّفْرُ تجارةُ العقلاءِ» يضربونه للدلالة على أن العقلاء هم من يسافرون
ليجمعوا من الخبرات ما يتاجرون به حين يعودون، وأصله أن حكيمًا سئل: لماذا تسافري يا
فلان؟ فقال: «السفر تجارة العقلاء، نخرج من أوطاننا فنشتري من كل بلد علماً وحكمة
ومالاً، ثم نعود إلى أوطاننا فنبيعها لأهلنا بثمن بخس، فنريح في الدنيا والآخرة» فصارت
كلمته مثلاً .

وقالوا أيضاً: «مَنْ جَالَ نَالَ، وَمَنْ عَادَ أَفَادَ» يضربونه للدلالة على أن السفر يكسب المرء
الخبرات، والعودة تكسب قومه الفوائد، وأصله أن رجلاً طاف البلاد، ثم عاد إلى قريته،
فصار يعلم الصبيان ما تعلمه، ويروي للناس ما رأى، فعظم شأنه في قومه، فقال شيخ القبيلة:
«من جال نال، ومن عاد أفاد» .

وللعائدين المحملين بالخير في حياة الأمم دروسٌ وعبر، فالغربة مدرسة العظماء: يُروى أن
أول سفير في الإسلام، مصعب بن عمير رضي الله عنه، أرسله النبي ﷺ إلى المدينة قبل
الهجرة، فكان غريباً في يثرب، لا أهل له فيها ولا مال، لكنه حمل معه رسالة ربه، فطاف

على المجالس، وقرأ القرآن، وجمع الناس على الإسلام، فعاد إلى النبي ﷺ في مكة ومعه سبعون رجلاً وامرأة من الأنصار، بايعوه في العقبة، فتأمل كيف ذهب مصعب غريباً وحيداً، ثم عاد رسولاً يحمل وراءه أمة، وهذا أعظم مثل للغريب.

ويروى أن أبا حنيفة النعمان رحمه الله، كان تاجراً يخرج إلى بلاد فارس والشام في تجارته، فيرى أحوال الناس، ويسمع أقصيتهم، ويتعلم عاداتهم، ثم يعود إلى الكوفة، فيجلس في حلقة يعلم التلاميذ، وقد صقلته الأسفار، وهذبته التجارب، وجمع بين فقه الحاضرة وفقه البادية، فكان يقول لتلاميذه: «لا تأنفوا من السفر، فإن السفر يزيد العقل، ويصقل الرأي، ويكسب الخبرة، ومن جلس في بلده، قلّ علمه، وضاق أفقه» فانظر كيف جعل أبو حنيفة السفر مدرسة للفقه، والعودة رسالة للعلم.

وقال ابن خلدون في مقدمته، واصفاً حال الأمم الناهضة: «إن النهضة لا تكون إلا بالتلاحق بين الأمم، فإذا سافر قوم إلى قوم، تعلموا منهم، ثم عادوا إلى أوطانهم، حملوا معهم بذور الحضارة» فانظر كيف جعل العائدين من الغربة سبب نهضة أوطانهم، ورسلاً حضارة إلى أهلهم.

وقيل في أخبار الأندلسيين: إن رجلاً من طلاب العلم في قرطبة، شد الرحال إلى بغداد، فأقام بها عشر سنين، ينهل من علم الخليفة المأمون ومكتباته، ثم عاد إلى الأندلس، ومعه مئات الكتب، وجلس في جامع قرطبة يعلم الناس، فلما سئل عن غربته قال: «غربتي تلك لم تكن غربة، بل كانت سفرًا إلى المعرفة، وها أنا أعود إلى أهلي رسولاً من بغداد، أحمل

إليهم علم المشرق، كما حمّله من قبلي الأنصار إلى المدينة» فانظر كيف صار الغريب جسراً بين المشرق والمغرب.

ويُروى أن رجلاً خرج من اليمن إلى مصر في طلب علم الطب، فأقام بها سنين، يتعلم اللغة، ويدرس الطب، ثم عاد إلى اليمن طبيباً ماهراً، فصار يداوي المرضى، ويعلم التلاميذ، ويكتب الكتب، فقال فيه قائلهم: «سافر فقيراً، فعاد غنياً، سافر جاهلاً، فعاد عالماً، سافر واحداً، فعاد أمةً».

وقال أحد الشعراء يصف العائد المحمل بالعلم:

سَافَرْتَ تَبْغِي الْعِلْمَ فِي أَقْصَى الْمَدَى * فَعُدْتَ تَحْمِلُ لِلْأَنَامِ كِتَابَا
فَكَأَنَّكَ كُنْتَ الْغَيْثَ مُبَشِّرًا * وَكَأَنَّكَ كُنْتَ الرَّبِيعَ وَآبَا

وقال آخر يصف حال العائد بالعلم والمعرفة:

إِذَا عَادَ غَرِيبُ الدَّارِ يَحْمِلُ خَيْرَهَا * فَلَيْسَ غَرِيبًا بَلْ رَسُولًا مُبْجَلًا
فَكَمْ مِنْ رَسُولٍ جَاءَ لِلْقَوْمِ مُنْقِذًا * وَكَمْ مِنْ غَرِيبٍ فِي الْبِلَادِ تَسْرَبَلَا

وقال ثالث يوصي الغريب أن لا ينسى قومه حين يعود:

إِذَا عُدْتَ يَوْمًا لِلدِّيَارِ فَلَا تَكُنْ * بِمَا جِئْتَ مِنْ عِلْمٍ عَلَى الْأَهْلِ طَاوِيَا
بَلْ أَبْسُطْ يَدَيْكَ بِكُلِّ خَيْرٍ جَمَعْتَهُ * فَأَنْتَ بِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ مُحَامِيَا

وأنت أخي الغريب، وأنت تقطع الليالي في أسفارك، وتجمع الخبرات في غربتك، وتكدّ في عملك، وتعلم في دراستك، لا تنس أن لك رسالة، لست مجرد نازح عن أهله، بل أنت سفيرهم في مكانك، وعيونهم التي يبصرون بها ما لم يبصروه، وأيديهم التي تصل إلى ما لم

تصل إليه أيديهم، فإذا آن أوان العودة، فعد إليهم بكل ما معك، علمهم ما تعلمت، وارو لهم ما رأيت، وابذل لهم ما جمعت، تكن بذلك قد أدت الأمانة، وجمعت بين أجر الغربة وأجر العودة، واعلم أن الغريب الكريم هو الذي يكون رسول خير حيثما حلّ، وسفير علم حيثما ذهب، وناشر فضيلة بين الناس، لا تكن في غربتك نائمًا، ولا تكن في عودتك صفر اليدين، بل كن رسولاً يحمل إلى أهله من شتى العلوم، وكنوز المعرفة، وخبرات الدنيا، فإنك إن فعلت ذلك، صارت غربتك مدرسة، وصار ذكرك في قومك باقياً، وعملك في صحيفتك مرفوعاً .

فلا تنس أنك ابن قومك وسفيرهم، وأن غربتك ليست غاية بل وسيلة، وأن عودتك ليست نهاية بل بداية، ازرع في الغربة خيراً تحصده في العودة، واكتسب في الأسفار علماً تنفع به أهل دارك، فإذا عدت إليهم يوماً، فاجعل عودتك عيداً لهم، واجعل ما حملته معك نوراً يضيء طريقهم، من دين ودنيا، فأنت الغريب الذي صار رسولاً، وأنت المسافر الذي صار ذخراً، وأنت العائد الذي صار غنياً .

الفصل التاسع عشر

(متى العودة؟ وكيف؟)

هذا هو السؤال الأصعب في درب كل مغترب، السؤال الذي يظل يطرق الباب كل ليلة: متى أعود؟ وكيف أعود؟ وفيه تعلم أن العودة ليست مجرد حزم حقائب وقطع تذاكر، بل هي قرار مصيري، ومفترق طرق، وامتحان للقلب والعقل معاً، وفيه ندرك أن العبد مهما طالت غربته في البلاد، فإن عودته إلى وطنه تُشردُّ ذهنه، وتشغل باله، بـ (متى؟ وكيف؟).

هناك معنى لم أشير إليه سابقاً في قوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَةً مِنْ سَفَرِهِ فُلْيَعَجَلْ إِلَى أَهْلِهِ» تأمل كيف أمر النبي ﷺ بالاستعجال إلى الأهل بعد قضاء النهمة من السفر، وكيف جعل العودة إلى الأهل هي الختام الطبيعي لكل رحلة، فالعودة في هدي النبوة ليست مجرد خيار، بل هي سنة، وهدي نبوي، ووصية محبوبة.

وقالت العرب في أمثالها: «الْعُودَةُ إِلَى الْأَصْلِ طَبِيعَةٌ» يضربونه للدلالة على أن الإنسان مفطور على حب العودة إلى أصله ووطنه، وأن الغربة حالة طارئة تزول، والعودة هي الأصل، وأصله أن حكيماً سئل: لماذا يحن الغريب إلى وطنه؟ قال: «العودة إلى الأصل طبيعة، والنفس مفطورة على حب منشأها ومهداها».

وقالوا في التحذير من تأخير العودة: «أَخِرِ الْعُودَ تَجِدْ مَا يَسُوءُكَ» يضربونه للرجل يبطئ في العودة إلى أهله، فتقوته الفرص، ويتغير عليه الزمان، وأصله أن رجلاً كان في غربة، فكان

كلما أراد العودة قال: غداً أعود، حتى طال به الزمن، فماتت أمه قبل أن تراه، وأفلس تجارته، فعاد حسيراً، فقال قائلهم: «لا تؤخر العود، تجد ما يسوءك».

وإليك بعض الأخبار والقصص التي تشير إلى أن قرار العودة يحتاج إلى حكمة، وأن للعودة فرحة لا توصف، وأن للعودة أيضاً ألماً قد يفاجئ الغريب: يُروى أن رجلاً من أهل دمشق خرج إلى الأندلس شاباً، فأقام بها أربعين سنة، حتى صار من أعيانها، ثم حنّ إلى وطنه، فعاد إلى دمشق شيخاً وقوراً، فلما دخل أزقة دمشق، لم يجد داره، فقد هدمت، ولم يجد أهله، فقد ماتوا أو تفرقوا، ولم يعرفه أحد، فجلس على حجر في زقاق قديم، وبكى حتى أغمي عليه، ثم أفاق، وقال: «عدت إلى وطني، فوجدتني فيه غريباً، وغادرت غربتي، فوجدتني فيها أهلاً، ما أصعب العودة بعد طول الغياب!» ثم قام فعاد إلى الأندلس، ومات فيها، قالوا: وهذا أصل قولهم: «من طال غيابه، صار غريباً في دياره» هذا عبرة لكل غريب، أن يعلم أن العودة قد لا تكون كما تخيل أو أراد.

وروي أن تاجرًا من أهل بغداد أقام في مصر ثلاثين سنة، وتزوج فيها، وولد له الأولاد، ثم أراد العودة إلى بغداد، فجمع ماله وأهله وسار بهم، فلما بلغ بغداد، وجدها غير التي يعرف، ووجد أقاربه قد ماتوا، وبيوتهم قد صارت لغيرهم، فجمع أهله وقال: «ما هذه بغداد التي كنت أعرف، بغداد التي كنت أعرف ماتت، وأنا حي بين موتاها، عودوا بنا إلى مصر، فثم الأهل والدار»، فعاد إلى مصر، ومات فيها، قال: وكان يقول: «الغريب بلا وطن، والوطن حيث القلب».

ويُروى عن ابن بطوطة أنه قال في رحلته: «لما عدت إلى طنجة بعد ثلاثين سنة، دخلتها غريباً، فما عرفني أحد، ولا عرفت أحداً، فوقفت على باب دارنا أسأل عنها، فقيل لي: مات أهلها وتفرقوا، فبكيت حتى لم أستطع الكلام، وأيقنت أنني صرت بلا دار، ثم إني دخلت المسجد، وصليت ركعتين، ودعوت الله أن يجمعني بأهلي في جنته، ثم خرجت، وجعلت الدنيا كلها داري، وكل أرض فيها مسلمون وطني» وهذا أبلغ عزاء للغريب الذي يخاف ألا يجد وطنًا إن عاد.

وقد صور الشعراء في أشعارهم فرحة العودة، وألمها أحياناً، قال أحدهم يصف فرحة العودة إلى الديار:

عُدْتُ وَالشَّوْقُ يَمَلُّ الْقَلْبَ نُورًا * فَوَجَدْتُ الدِّيَارَ قَفْرًا وَبُورًا
مَا عَرَفْتُ الْوُجُوهَ وَالْبَابَ خَلَى * فَوَقَفْتُ الْغَرِيبَ فَوْقَ الْجُسُورَا

وقال آخر يصف حال من عاد فلم يجد أهله:

يَعُودُ الْفَتَى بَعْدَ الْغِيَابِ لِدَارِهِ * فَيَلْقَى ثَرَى الْأَحْبَابِ تَحْتَ التُّرَابِ
فِيكِي وَلَا يُجِدِي الْبُكَاءُ وَلَا الْأَسَى * وَيَرْجِعُ مَحْمُولًا عَلَى الْأَعْقَابِ

وقال ثالث يصف أن العودة الحقيقية هي العودة إلى الله:

سَرَّجُ يَوْمًا لِلَّهِ وَتَلَّتِي * بَمَنْ فَارَقْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ يَدُ الْبَيْنِ
فَهْدِي هِيَ الْعُودَةُ الْكَبِيرَةُ فَاعْمَلْنِي * لَهَا صَالِحًا نَتَجُوبُهُ يَوْمَ تَلْقَانِي

فيا أخي الغريب عن داره، حينما تفكر في العودة؛ لا تجعل قرارك وليد ساعة عابرة، ولا وليد لحظة حنين طارئة، بل استخر الله، وادرس حالك، وانظر في أمرك، واعلم أن العودة

لا تعني الفشل، كما أن البقاء لا يعني النجاح، فالغربة محطة لا دار، وجسر لا مقر، فإن
كنت قد بلغت مرادك، فعد إلى أهلك، وإن كنت لم تبلغ بعد، فاصبر حتى تبلغ، المهم أن
تكون عودتك عودة كريمة، لا عودة انكسار، وأن تكون عودتك محمّلة بالخيرات لنفسك
ولغيرك.

الفصل العشرون

(نسمات العودة وفرحة اللقاء)

هنا نصور فرحة اللقاء بعد طول الغياب، ونجعل من هذا الأمل سلوى لكل مشتاق، وغاية لكل مسافر.

قال الله سبحانه وتعالى في قصة يوسف عليه السلام، مصوراً مشهد العودة واللقاء بعد طول الفراق: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] تأمل كيف آوى يوسف أبويه إليه، وكيف جمعهم في مصر آمنين بعد سنين من الخوف والقلق، إن هذا المشهد وعد من الله لكل غريب صابر، بأن العودة آتية، وأن اللقاء قريب.

وفي الحديث الذي ذكرناه آنفاً قوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَىٰ أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ فُلْيَعْبَجِلْ إِلَىٰ أَهْلِهِ» فجعل ﷺ التعجيل إلى الأهل ختام السفر وثمرته، وكأنه يقول للمسافر: اصبر على عذاب السفر، فإن في نهايته لقاء ينسيك كل تعب، وفرحة تمحو كل كدٍ ونصبٍ.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ١٨٠٤

وقد قالت العرب في أمثالها: «الْعَوْدَةُ أَحْمَدُ» وأصله أن رجلاً خرج في تجارة فأطال الغيبة، حتى ظن أهله أنه قد مات، فلما عاد خرجوا لاستقباله بالبكاء والفرح، وسألوه: لماذا أبطأت؟ فقال: «العودة أحمد» فذهبت كلمته مثلاً.

وقالوا: «اللِّقَاءُ يَمْحُو أَلَمَ الْفِرَاقِ» وأصله أن رجلاً غاب عن زوجته سنين، فلما عاد وراثة، خرت مغشياً عليها من شدة الفرح، فلما أفاقت قالت: «اللِّقَاءُ يَمْحُو أَلَمَ الْفِرَاقِ».

ويروى في أخبار العرب: أن تاجرًا من أهل الكوفة خرج في رحلة إلى خراسان، فطال به السفر حتى ناهز العشرين عامًا، وكانت له أم عمياء، فلما عاد تقدم إلى داره متكرًا، فسمع أمه تقول: «يا رب رد غائبي، يا رب اجمع شملنا» فطرق الباب، فلما فتحوا له، قال: «أنا فلان» فصاحت الأم: «ابني!» وقامت إليه، فأخذت تلمس وجهه بيديها، فإذا بعينيها تنفتحان من شدة الفرح، فأبصرت ولدها بعد عشرين سنة من الظلام.

وقيل: إن شيخاً طالت غربته، فلما عاد إلى حيه، خرجوا لاستقباله بالدفوف والأهازيج، فقال: «والله إني كنت أظن أنكم نسيتموني» فقالت له ابنته: «يا أبت، كيف ننسأك ووجهك في المرأة كل صباح؟».

وقال الشاعر في وصف العودة:

عَادَ الْغَرِيبُ إِلَى الدِّيَارِ وَحَزْنُهُ * قَدْ بَدَّلَتْهُ الْبُشْرِيَّاتُ سُرُورًا
فَكَأَنَّما كَانَ النَّوَى حُلْمًا مَضَى * وَكَأَنَّما كَانَ اللِّقَاءُ نُدُورًا

وقال آخر يصور مشهد الاستقبال:

لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ بَعِيدٍ أَقْبَلُوا * زَمْرًا وَصَاحُوا فَرَحَةً وَتَهَلَّلُوا

فَتَعَانَقُوا وَتَسَاقَطُوا فَرِحًا حَذَرًا * مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ الَّذِي قَدْ أَثْقَلُوا

فإذا عدت إلى أهلك، فاحمد الله الذي جمع شملك، وأحسن إلى أهلك، واذكر أن هناك عودة أكبر، ولقاء أتم، في جنات النعيم، حيث لا فراق ولا حزن، ولا غربة ولا أسفار، تلك هي العودة ذات الفرحة العظمى.

الفصل الحادي والعشرون

(غريبٌ في أهله وداره)

هنا ترى الوجه الآخر للغربة، لا غربة الجسد عن الديار؛ بل غربة القلب مع الأهل والدار، إنها اللحظة التي يقرر فيها المسافر أن يطوي شراعه، ويللم حقائقه، ويعود إلى حيث كان يصبو، فإذا به يكتشف أن الزمن قد مضى، وأن القلوب قد تغيرت، وأن الأولاد قد كبروا بعيداً عنه، وأن الزوجة قد اعتادت غيابه، فالصدمة هنا: أنه صار غريباً بين أهله، دخيلاً في بيته، ضيفاً في مملكته التي بناها مقابل حياته وفناء عمره، إنه "غريب بين أهله وفي داره"، يذوق مرارة الغربة الثانية، غربة لا تشبه الأولى، لأن الأولى كانت غربة عن مكان، وهذه غربة عن قلوب وأبدان، تمزق الروح تمزيقاً، وتجرح القلب جرحاً غائراً عميقاً.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] تأمل هذا التحول الذي يمر به الإنسان بنفسه من حال إلى حال، كيف يصير جسده بعد القوة ضعيفاً هذيلًا، وعقله وعلمه بعد المعرفة نسياناً وتيهًا، فحياته بعد العزلاً، وهذا يشبه لحدٍ ما بعض ما يصيب الغريب العائد بعد طول غياب؛ حيث يعود وقد كان في غربته قويًا مكافحًا، فيجد نفسه ضعيفًا لا يملك من أمره شيئًا، يرى أحبته قد بنو حياتهم بدونه، وصنعوا عالمًا من جهده وبذله ولكن ليس له فيه مكان.

وقال سبحانه مبينًا أن الحياة تمر بمراحل متعاقبة، لا يثبت فيها الإنسان على حال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ

أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَاتِهِ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴿ [الحديد: ٢٠] فتأمل كيف شبه الله الدنيا بزرع يخضر ثم يهيج فيصير حطامًا، هكذا حال الغريب الذي خرج فبنى وزين وتفاخر، ثم عاد فوجد أن ما بناه في غربته لم يشفع له في داره، وأن الأولاد الذين أنفق عليهم من تعبته وجهده قد صاروا كزرعٍ زرعه ثم عاد ليحني ثمره فوجده حطامًا .

فيا أهل الغريب؛ يا مَنْ أصابهم الجفاء تجاه غريبهم، اعلموا أن الواجب عليكم أن تتقوا الله في وصل ما قطعتموه، وفي جبر ما كسرتموه، قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: ١] قرن سبحانه الأرحام باسمه العظيم لمكاتها وعظمتها، وهو القائل عز وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢) جعل سبحانه قطع الأرحام إفسادًا في الأرض وضلالًا، قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^١ فجعل صلة الرحم من الإيمان بالله واليوم الآخر، وكل هذا في قطع الأرحام عامة، فكيف بالأب؟ وعليه فمن قطع رحم العائد الغريب أو جافاه، كان في إيمانه نقص، فاحذروا استقبال العائد ذي الرحم بالجفاء والصدود .

ويا مَنْ تغرب في البلاد وأفنى عمره حتى نسيه أهله وقطعوه، احذر أن يكون الجفاء والصدود منك، فإنك تجني بذلك مرَّ الثمر، وطول السهر، قالت العرب في أمثالها عن البعد وأثره في القلوب: «الْبُعْدُ جَفَاءٌ» يضربونه للدلالة على أن البعد يورث القسوة والجفاء بين

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، حديث رقم: ٦١٣٨

الأحبة، وأن الغائب قد ينسى أو يُنسى، وأصله أن رجلاً طال غيابه عن قومه، فلما عاد لم يجد من يستقبله، فقال: «البعد جفاء، طال غيابي فجفاني أهلي» فصارت مثلاً، ومن هذا المعنى قولهم: «الغائبُ لا يَنْتَظَرُهُ أَحَدٌ»، ومعناه أن الناس يملون الانتظار، فتقطع أخبارهم، ويقل تواصلهم، ويصير الغائب كأن لم يكن.

وقالوا: «رُبَّ غَائِبٍ لَا يُنْتَظَرُ» يضربونه للدلالة على أن الغائب الذي يطول غيابه، قد يئس منه أهله، فيكفون عن انتظاره، ويمضون في حياتهم بدونه، وأصله أن رجلاً خرج فطال مكثه، فلما عاد، قال له أبوه: «لقد كنت في عداد الموتى عندنا» فحزن الابن وقال: «أوصل بي الأمر إلى أن صرت لا أنتظر؟» فجرت مثلاً، ومعناه أن الغائب إن طال غيابه، صار في حكم المفقود.

وقالوا: «مَنْ طَالَ غِيَابُهُ، فَقَدَ أَحْبَابَهُ» يضربونه للدلالة على أن الغياب الطويل يفقد المرء أحبته، لا بالموت؛ بل بتغير القلوب، وأصله أن رجلاً غاب عن قومه سنين طوالاً، فلما عاد لم يجد منهم حفاوةً ولا ترحيباً، فقال: «من طال غيابه، فقد أحبابه».

ويا أهل غريب الدار؛ الحذر الحذر أن تجازوه بالاستغناء والتقصير؛ فتكونوا من المفسدين في الأرض، واعلموا أن الغريب في غربته ضعيف كسير، فارحموا غربته، وأكرموا عودته، واحفظوا له قدره، وقدرُوا بَذَلِهِ وَعَطَاءَهُ، وبَدَلُوا الْجَفَاءَ بِحَفَاوَةِ وَوُدِّ، والقسوة باللين والحب والبر، وأحسنوا القول وحسنوا الأفعال، قال سبحانه: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة: ٨٣) أي قولوا قولاً حسناً، وبالأفعال أُولِي، والعائد من غربته أُولِي الناس بالإحسان؛ فهو الأب الذي وصاكم الله به في كتابه فقال سبحانه: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ (الإسراء: ٢٣) فأكرموا عودته،

واطلبوا مودته، فقد حرم نفسه ليعطيكم، وأفنى شبابه ليغنيكم، وبذل حياته ليرضيكم، فأحسنوا جائزته كما يستحق أن يُمنح، وكونوا له حياةً ثانية .

قالت العرب في ذم الجفاء على الغائب: «لَيْسَ الْوَفَاءُ لِمَنْ يَنْسَى غَائِبَهُ» يضربونه للدلالة على أن الوفي هو من يذكر غائبه، ويسأل عنه، ويتربص عودته، وأصله أن قومًا تنكروا لرجل عاد بعد طول غياب، فقال شيخهم: «ليس الوفاء لمن ينسى غائبه، بل الوفاء لمن يذكره ويسأل عنه» .

وإليكم بعض أخبار الغرباء وقصصهم بالأمها ومرارتها، وهي تدل على أن العودة قد تكون أشد ألمًا من الغربة نفسها: يُروى أن رجلاً من أهل العراق خرج إلى بلاد الشام تاجرًا، فطال به المقام حتى بلغ العشرين سنة، وكان يرسل إلى أهله المال، ويكاتبهم بين الحين والحين، فلما تقدمت به السن، قرر العودة إلى وطنه، ليستقر بين أهله وأولاده، باع متجره، وجمع ماله، وعاد إلى بغداد، فلما دخل داره، وجد امرأته قد هرمت، وأولاده قد كبروا وصاروا رجالاً ونساءً، أما أولاده، فكانوا ينظرون إليه كأنه كأنه رجل غريب دخل عليهم، لا يعرفونه إلا من الصور، ولا يذكرونه إلا من الحكايات، كان أكبرهم في السادسة عشرة من عمره حين خرج الأب، أما أصغرهم فلم يره قط، فجلس الأب في صدر المجلس، ينتظر من أولاده أن يقبلوا عليه، ويسألوه عن غربته، ويشاقوا إليه، لكنهم كانوا يتحاشون النظر إليه، ويستثقلون الحديث معه، أما زوجته، فكانت تنظر إليه بعينين قد ذبلت فيهما نار الشوق، وصار فيهما برود الاعتیاد على الغياب، قال الرجل: «خرجت من داري وأنا سيدها، وعدت إليها وأنا فيها دخيل، خرجت والأولاد يتعلقون بشيبي وبكون، وعدت وهم ينظرون إليّ ولا أكاد

أعرفهم، خرجت وزوجتي تنظر إليّ بعين الدامع، وعدت وهي تنظر إليّ بعين الغريب، فشعرت أنني قد خسرت الغربة والوطن معاً، خسرت العمر في الغربة، وخسرت الأهل في الوطن، فعدت كما بدأت، وحيداً في داري، غريباً بين أهلي» ثم بكى وقال: «هذا جزاء من استرخص الغربة؛ أن تصير الدار غربة».

وقيل كذلك: إن رجلاً من أهل اليمن خرج إلى بلدٍ في تجارة، فأقام بها ثلاثين سنة، لم يعد فيها إلى أهله إلا مرات معدودات، وكان له ولد وحيد، تركه طفلاً صغيراً، فلما عاد الأب شيخاً، وجد ولده قد صار رجلاً، متزوجاً، وأباً لأطفال، فدخل الأب داره، وجلس حيث كان يجلس آباء القوم، فنظر إليه ابنه، وقال له: «من أنت؟»، قال الأب: «أنا أبوك»، فنظر الابن طويلاً، ثم قال: «أبي مات في الغربة منذ زمن بعيد، أنا لا أعرفك»، فصعق الأب، ودمعت عيناه، وقال: «يا بني، أنا أبوك، خرجت وتركتك طفلاً، وها قد عدت شيخاً»، قال الابن: «أنا لا أذكر لك وجهها، ولا أعرف لك صوتاً، كنت غائباً عني طول عمري، فكيف أكون لك ابناً اليوم؟»، قال الراوي: فبكى الأب حتى غشي عليه، ثم قام فخرج من الدار، وذهب إلى المسجد، وجلس يبكي، فسمع به جار قديم، فجاء إليه، وعرفه، وأخذه إلى بيته، وقال له: «يا فلان، لا تلم ابنك، فإنه لم يعرف غير أمه، ولم ير غير غيابك، أنت الذي اخترت الغربة، فاصبر على ما اخترت»، فمكث الأب عند جاره أياماً، ثم مات كمدًا، فكانت هذه القصة تُروى في مجالس اليمن، ويقال فيها: «من طال غيابه، صار غريباً في دياره، وفقيداً في حياته».

ويُروى أن رجلاً من أهل المغرب خرج إلى بلاد الأعاجم في طلب الرزق، وبقي فيها أربعين سنة، وكان يرسل إلى أهله المال، ويبني لهم البيوت، ويشترى لهم الأراضي، فلما عاد، وجد إخوته قد تفرقوا، ووالديه قد ماتا، وأولاده قد صاروا رجالاً لا يعرفونه، وكانوا يسمعونهم يتكلم بلهجة غريبة، اختلطت فيها لغة العرب بلغة الإفريج، فكانوا يسخرون منه، ويضحكون من طريقة كلامه، أما زوجته، فكانت قد نسيت عشرة الأيام الأولى، وصارت لا ترى فيه إلا رجلاً غريباً يشاركها بيتها، فكان إذا جلس معهم على مائدة الطعام، شعروا كأن بينهم وبينه سوراً، قال الرجل: «بنت لهم بيتاً من حجر، فهدمت بيتاً من لحم، جمعت لهم مالاً، وضيعت لهم رجلاً، ربحت في تجارة الدنيا، وخسرت في تجارة القلوب»، فكان الرجل يخرج كل يوم إلى شاطئ البحر، ويجلس وحده ساعات يتأمل الموج، حتى مات وحيداً على ذلك الشاطئ، فدفنوه في مقبرة الغرباء، وكان غريباً في مماته كما كان غريباً في حياته.

ويُروى أن رجلاً من أهل مصر كان يعمل في إحدى دول الخليج، فطال به المقام حتى بلغ الخامسة والعشرين سنة، وكان يزور أهله كل عامين مرة، يمكث معهم شهراً ثم يعود، فلما قرر العودة إلى مصر للاستقرار، عاد واشترى بيتاً، وجمع أولاده حوله، لكنه لاحظ أن أولاده لا يألونه، ولا يجلسون معه، ولا يستشيرونه في أمورهم، كانوا قد تعودوا تدبير أمورهم بأنفسهم، واتخاذ القرارات دون العودة إليه، فكان إذا تدخل في شأن من شؤونهم، قالوا له: «يا أبت، نحن كبارنا، وكنا ندبر أمورنا وأنت بعيد، فدعنا الآن»، وكانت زوجته قد صارت تدبر البيت وحدها، وتحكم في كل شيء، فلا ترجع إليه في كبيرة ولا صغيرة، فشعر الرجل أنه صار زائداً في البيت، لا دور له إلا أنه «الممول» الذي كان يرسل المال ثم صار

عالة عليهم، فجلس ذات ليلة، وكتب في دفتره: «ربحت المال وخسرت العمر، اشترت العقار وبعث القلوب، بنيت البيوت وهدمت الأسر، هذا جزاء من ظن أن الغربة باب الغنى، فإذا هي باب الفقد».

وقيل في أخبار السلف: إن رجلاً من التابعين كان كثير الأسفار، فغاب عن أهله سنين، فلما عاد، وجد ابنه الأكبر قد صار شاباً، لا يسمع من أبيه، ولا يطيع له أمراً، فسأله أبوه عن شيء، فأجابه بجفاء، فحزن الأب، وشكا إلى الحسن البصري رحمه الله، فقال له الحسن: «يا هذا، إن الولد زرع، فإن سقيته في صغره، أثمر لك في كبر، وأنت تركته حتى يبس عوده، صعب عليك تقويمه، أنت زرعت الغربة، فاحصد الجفاء، فاستعن بالله، وأقبل على ابنك بالرفق، ولا تحمله من الأمر ما لا يطيق، واصبر عليه، فعمل الله أن يصلحه لك».

ويروى عن أحد الحكماء أنه قال: «الغائب عن أهله كالماء في الإناء الموضوع تحت الشمس، إن طال به الزمن، جف ماؤه، وبقي الإناء فارغاً، فإذا عاد الغائب، وجد الإناء فارغاً، فلا يلومن إلا نفسه».

وقال أحد الشعراء يصف حاله بعد العودة:

عُدْتُ وَالشَّوْقُ يَمَلُّ الْقَلْبَ نُورًا * فَوَجَدْتُ الدِّيَارَ قَفْرًا وَبُورًا
مَا عَرَفْتُ الْوُجُوهَ وَالْبَابَ خَلَى * فَوَقَفْتُ الْغَرِيبَ فَوْقَ الْجُسُورِ

وقال آخر يصف حال الأولاد الذين لا يعرفونه:

خَرَجْتُ مِنَ الدِّيَارِ وَهُمْ صِغَارٌ * وَعُدْتُ وَهُمْ رِجَالٌ فِي السُّيُوفِ
فَلَمَّا جِئْتُ تَطَلَّبُ مِنْهُمْ وُدًّا * رَأَوْا فِيكَ الْغَرِيبَ بِكُلِّ حُوفِ

وقال ثالث يصف جفاء الزوجة بعد طول الغياب:

وَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ الدَّارَ أَلْقَى * حَبِيْبًا تَشْتَهِي نَفْسِي لِقَاَهُ
فَصِرْتُ الآنَ أَدْخُلُهَا غَرِيْبًا * كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا أَرَاهُ

وقال رابع يصف غربة الدار بعد العودة:

الْغُرْبَةُ الْأُولَى دِيَارٌ لَا نَعْرِفُهَا * وَالثَّانِيَةُ الدِّيَارُ حِينَ تَجْهَلُنَا
فَالأُولَى تُنْقِضِي يَوْمًا وَتَذْهَبُ * وَالثَّانِيَةُ مَا لَهَا آخِرٌ مَعَنَا

وقال خامس في نصيحة لمن يفكر في طول الغياب:

إِذَا طَالَ غَيْبُ الْمَرْءِ عَنِ أَهْلِ دَارِهِ * فَلَا تُنْتَظِرْ أَنْ يَرْجِعَ الْعَهْدُ الْمَدْرَ
فَإِنَّ الْقُلُوبَ لَيْسَ فِيهَا ثَبَاتٌ * تُغَيِّرُهَا الْأَيَّامُ كُلُّ مُمْرٍ

وأما كيف يتفادى المسافر هذا المصير المؤلم، فإن الأمر يحتاج إلى حكمة وتدبير، وإلى فهم عميق لطباع القلوب، فالقلوب تتغير، والمشاعر تذبل، والذكريات تخبو، إذا لم تُسَقْ بماء التواصل الدائم.

أول ذلك وأهمه: (ألا يطيل الغيبة حتى تصير قطيعة) فمن خرج لطلب الرزق، فليجعل لنفسه مواعيد منتظمة للعودة، ولو كانت قصيرة، فالزيارة المتكررة تبقى جذوة المحبة متقدة، وتمنع العشب من النمو في دروب القلوب، فلو زار أهله كل بضعة أشهر، لكان خيرًا له من أن يغيب عنهم عشر سنين ثم يأتيهم دفعة واحدة.

وثانيها: (التواصل الدائم الذي لا ينقطع) ليس المال وحده هو الذي يصل الغريب بأهله، بل الصوت والصورة والكلمة، فإن عجز عن الزيارة، فليجعل له وقتًا ثابتًا يتحدث فيه إلى أهله،

يسأل عن أحوالهم، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ويعرف أخبارهم، وهذه الأمور سهلة يسيرة في زماننا، فوسائل التواصل جعلت المسافر يستطيع أن يرى أهله وأولاده على شاشة هاتفه في أي وقت شاء وفي أي مكان أراد، فالأب الذي يتصل بأبنائه دائماً، يتابع حياتهم بكل تفاصيلها، يظل حاضراً في قلوبهم لا يُنسى، أما الأب الذي لا يتصل إلا كل شهر أو شهرين، فيصير شيئاً فشيئاً ذكرى باهتة، وصوتاً بعيداً، واسماً بلا ملامح.

وثالثها: (ألا يجعل المال بديلاً عن الحضور) فكثير من الآباء يظنون أن المال يعوض الغياب، فيرسلون إلى أبنائهم كل ما يطلبون، ويمنحونهم كل ما يشتهون، ويحسبون أنهم بذلك يبنون الحب، والحقيقة أن المال لا يبني حباً، ولا يخلق وداً، ولا ينشئ برّاً، إن الأولاد لا يريدون مالاً فقط، بل يريدون أباً، يريدون وجهه، وصوته، ويده التي تربت على أكتافهم، وحضنه الذي يأويهم، فمن جعل المال بديلاً عن نفسه، فليتوقع أن يجد أبناءه يوماً ينظرون إليه كما ينظرون إلى "مصرف" لا إلى "أب".

ورابعها: (أن يشرك أهله في قراراته) المسافر الذي يقرر السفر أو العمل أو حتى قرار العودة وحده، دون أن يهنيء أهله، ودون أن يعدّهم نفسياً، فيصدمهم بعودته، ويضعهم أمام أمر واقع؛ فعليه تحمل النتائج، أما إذا تشاور معهم، وأخبرهم برغبته في السفر والعمل والعودة، وسألهم عن رأيهم، وخطط معهم لسفره وعودته، فإنهم ينتظرونه ويترقبونه، ويكونون على أهبة لاستقباله، فالتخطيط المشترك يصنع ألفة، ويذيب جليد الغربة.

وخامسها: (أن يصبر على جفائهم إن وقع) فإذا عاد المسافر، ووجد جفاء؛ فلا يغضب، ولا يثور، ولا يمينّ عليهم بما فعل، بل يصبر، ويتقرب منهم برفق، ويحاول أن يبني معهم علاقة

جديدة، علاقة لا تقوم على ذكريات الماضي وحده، بل على حاجات الحاضر، فالأولاد الذين كبروا في غيابه، ليسوا هم الأولاد الذين تركهم، لقد تغيروا، وكبروا، وصارت لهم حياتهم؛ التي ربما لا يعرف الأب عنها شيئاً، فعليه أن يتعرف إليهم من جديد، لا أن يطالبهم بأن يكونوا كما تركهم.

وأما الأهل والزوجة والأولاد، فالواجب عليهم تجاه المسافر العائد واجب عظيم، حث عليه الشرع، ودعت إليه المروءة، وأمرت به الأخلاق:

أول ذلك: (أن يستقبلوه بالبشر والترحاب) إن حسن الاستقبال من مكارم الأخلاق، فكيف بأبٍ يأتي بعد طول غياب، وقد أفنى عمره في سبيل راحة أهله وأولاده؟ إن أقل ما يستحقه أن يجد وجوهاً باشة، وقلوباً مفتوحة، وأذرعاً تحتضنه.

وثانيها: (ألا يعاتبوه في أول قدومه، ولا يسألوه عن ماله وما جمعه) فإن هذا مما يجرح قلبه، ويشعره أنه لم يكن غائباً إلا ليجمع المال، وأن قيمته عندهم بما في جيبه لا بما في قلبه وقربه، وقد قالت العرب: «لَا تُسْأَلِ الْعَائِدَ عَنْ زَادِهِ» يضربونه للدلالة على أن القادم من السفر لا يُسأل عما معه، بل يُرحب به أولاً، ثم بعد أن يستريح، يكون لكل حادث حديث، فالأولى بالمسافر أن يجد الراحة والأمن، لا أن يواجه بالأسئلة عن المال والأفعال.

وثالثها: (أن يصبروا على ما يرون منه من اختلاف في الطباع والعادات) الغريب الذي عاش في بلاد أخرى سنين طويلاً، لا بد أن يكون قد تأثر بشيء من عاداتها، واكتسب شيئاً من طباعها، فلا يسارعوا إلى لومه، ولا يسخرُوا من كلامه وفعاله، ولا يستنكروا ما أتى به من عادات جديدة، بل ليتلطفوا في نصحه، وليصبروا عليه حتى يألف الحياة بينهم من جديد،

وقد قال الحسن البصري رحمه الله: «من عامل الناس بالرفق، لم يعدم منهم حسن الصحبة»
هذا مع الغرباء فكيف بالأب؟

ورابعها: (أن يشركوه في حياتهم، ولا يجعلوه غريبًا في بيته) فليجلسوا معه، وليحدثوه عما فاته من أخبارهم، وليستشيروهم في أمورهم، وليشعروهم أنه الأب والزوج والأخ، وأن مكانه بينهم لم يأخذه أحد، وأن غيابه لم يمحُ حبه من قلوبهم، فالإنسان يحتاج إلى أن يشعر بقيمته، وأن له دورًا، فإذا شعر الغريب العائد أنه لا دور له، ولا قيمة لرأيه، ولا مكان لوجوده، انطوى على نفسه، واستوحش، وصار غريبًا في داره.

وخامسها: (أن يتذكروا فضله عليهم) فالذي سافر واغترب، إنما فعل ذلك من أجلهم، ترك وطنه وأهله ودياره، وتحمل مشقة الغربة، ومرارة الوحدة، وشظف العيش، ليوفر لهم حياة كريمة، فلا أقل من أن يشكروه، وأن يذكروا فضله، وأن يقابلوا إحسانه بإحسان، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ» فكيف بأبٍ كان إحسانه إليهم عمرًا كاملاً من الكد والتعب؟ إن نسيان فضله جحود، والتنكر لجميله خيانة وجمود.

وليعلم الجميع أن الغربة ليست اختيارًا يسيرًا، ولا ترفًا يُختار، بل هي قدر ثقيل، وقرار صعب، وحمل ثقيل على الظهر، يخرج الرجل من داره، وقلبه يتقطع، وعيناه تدمعان، وهو يعلم أنه يخاطر بكل شيء: (نفسه، وأهله، وأولاده، وحاضره ومستقبله) يفعل ذلك كله

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث رقم: ١٩٥٤، وقال: حسن صحيح

رجاء أن يبني لهم مستقبلاً أفضل، ويوفر لهم عيشاً أكرم، فإذا عاد بعد هذا كله ليجد الجفاء والصدود، فأى خيبة أشد من هذه؟ وأي كسر أعظم من هذا الكسر؟

وأخيراً: أخي الغريب عن الأهل والديار، إن كنت مضطراً للغربة، فلا تجعلها تغريك عن أهلك، زهرهم، كلمهم، مازحهم، استشرهم، أشركهم في حياتك، وإذا آوَّان العودة، فعد قبل أن تفوتك القلوب، وقبل أن يصير الأولاد رجالاً ونساءً لا يعرفونك، الغربة وسيلة إلى العيش، لا غاية تُفنى فيها الأعمار.

ويا أهل الغريب، يا من تنتظرون العائد الذي أفنى عمره من أجل عفتكم، استقبلوه بالحب قبل المال، وبالبشر قبل السؤال، وبالحنو قبل أخذ الهدايا، تذكروا تعبهم، واعرفوا فضله، وقدروا غربته، فلا تكسروه، ولا تجعلوه يوماً نادماً متحسراً.

ويا أيها الأبناء، لا تنظروا إلى أبيكم العائد بعين الغريب، ولا تقيسوا حبه بما جمع من مال، ولا تجفوه لأنه لم يعيش بينكم، إن الأب هو العطاء الذي لا ينتهي، غاب لتعيشوا، واغترب لتستقروا وتسعدوا، أفنى حياته من أجل راحتكم وأمانكم، وتحمل مرارة الوحدة لتذوقوا أتم حلاوة العيش، فبرّوه، وأكرموا، وقبلوا رأسه، وأشعروه أنه عاد إلى قلوبكم قبل أن يعود إلى داركم، فلولاه ما كنتم كما أنتم.

الفصل الثاني والعشرون

(حُبُّ وَاِمْتِنَانٍ: أُمُّ الْبِلَادِ وَغَوْثُ الْعِبَادِ)

هنا أخلع رداء الكاتب وأقف بقلب ملهوف، فهذا ليس فصلًا متممًا للفصول؛ بل رسالة حب وامتنان وشكر موصول، فإن شئتَ واصلتَ وقرأتَ، وإن شئتَ توقفتَ وتركتَ، فإني وجدت القلب يأبى ترك القلم دون التحدث عن وطني الأم: (مصر) التي أحببتها حبَّ الصغير لحضن أمه، والتي أحنَّ إليها كلما غربتني الديار، وأشتاق إلى ترابها كلما نأت بي الأسفار، ثم أذكر طيفًا عن بلاد العرب، أهدي إليها حبي وامتناني.

سبحان الذي غرس في القلوب حبَّ الأوطان، وجعل مصر أم البلاد وغوث العباد، وأودع فيها من البركات ما لا يحصى، ومن الفضائل ما لا يستقصى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أوصى بأهل مصر خيرًا، وقال: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»^١ قال أهل العلم: الرحم هنا أن هاجر أم إسماعيل -عليه السلام- كانت من مصر، فمصر أخوال العرب، فمن أراد أن يعرف قدر مصر عند الله ورسوله، فليأمل هذه الوصية النبوية الخالدة: «فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا».

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٥٤٣

ومصر أم البلاد، ومهد الحضارات، ومنبع الأنهار والعطايا، فيها نبت الزرع، ومنها خرج النور إلى الدنيا، قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، مذكراً عباده بفضله على مصر وأهلها: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] قال أهل التفسير: أي بلد كان لا يقوم مقام مصر في الخير والعطاء، لأن مصر هي الأرض التي وهب الله لها النيل، وجعل فيها الأمن والاستقرار، فصارت مثابة للجائعين، وملأها للخائفين.

ويقول الله عز وجل في قصة يوسف -عليه السلام- وقد مكن له في مصر وجعلها مهبط الوحي ومجمع النبیین: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَدًّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] تأمل! يوسف -عليه السلام- جاء إلى مصر غريباً ضعيفاً، فإذا به يصير عزيزها، وتصير مصر ملاذها وملأذ أبيه وإخوته من بعده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] فكانت مصر هي الوطن الذي آوى الأنبياء، ووُضِعَ فيها الأمن والأمان.

وقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أي البلاد أفضل؟ فقال: «مصر، فيها النيل، وفيها النخل، وفيها الزرع، وفيها الخير الذي لا ينقطع».

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه لما دخلها: «ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة».

وقال المؤرخون: مصر حصينة بالطبيعة، محمية بالصحاري من شرقها وغربها، مباركة بنيلها، عامرة بسكانها، لا ينقطع عنها الخير ولا ينزع منها الجمال.

وقال ابن خلدون في مقدمته عن مصر: «من دخلها من العلماء والفضلاء أقام بها ورغب عن غيرها، لأن فيها من لين العيش ورخاء البال ما لا يوجد في غيرها».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله وقد أقام بها وأحبها: «من أراد الدنيا فعليه بمصر، ومن أراد

الآخرة فعليه بمصر» وقال أيضاً فيها وقد رأى نيلها وجمالها:

لَقَدْ أَصْبَحَتْ مِصْرٌ مَحَلَّ قَرَارَةٍ * وَقَدْ أَشْرَقَتْ فِيهَا الْعُيُونُ الْبَصَائِرُ

وَقَدْ صُوِّرَتْ فِيهَا الْجَنَانُ كَأَنَّهَا * عَرَائِسُ تَزْهُو فَوْقَهُنَّ السَّائِرُ

وقال الشاعر العربي القديم يصف فضلها وخيرها المتدفق:

مِصْرُ بِلَادِ الْخَيْرِ مَا إِنَّ وَطَنَهَا * إِلَّا وَعَادَ مُؤَمَّلًا مَسْرُورًا

نَيْلٌ يَفِيضُ عَلَى الرَّبِيِّ فَكَأَنَّهُ * نَهْرُ الْجَنَانِ يُسِيلُ فِيهَا النَّوْرَا

ولطالما تغنى الشعراء بمصر، فوصفوها بأنها أم البلاد، وغوث العباد، ودرة الشرق، وسراج

الأرض، وخزائن الله التي فيها رزق الدنيا، وقد قالت العرب في أمثالها: «مصر خزائن

الأرض كلها» وأصل ذلك أن عبد الملك بن مروان سأل أحد خاصته: «أي البلاد أغنى؟»

قال: «مصر، يا أمير المؤمنين، فيها زرع لا ينقطع، ونيل لا ينضب، وسماء لا تقحط».

وقالوا: «مصر أم البلاد، وغوث العباد» ومعناه أن مصر كانت على مر العصور ملاذاً

للمجاعات، ومطعمًا للجوع، ومأمناً للخائفين، فكانت كالأم التي تطعم أولادها، وكان غوث

الذي ينجد الملهوف.

وبعد ذكرنا للقليل من فضائل مصرنا المحبوبة، نشير إلى أن الكريم من إذا أظلمت سماء بلد،

وأظلمت أرض قوم، وأكل من خيرهم، وشرب من مائهم، عاش بينهم بقلب مفتوح، ويد ممدودة

بالخير، ولسان صادق بالشكر، وقلب وفي لا ينسى الجميل، وهكذا كان العرب يقولون:

«من أكرمك فملكه، ومن أحسن إليك فاخدمه»، وقالوا أيضاً: «الحر من حفظ الجميل،

وذكر الفضل، وأوفى بالعهد» وإنني إذ أكتب هذه السطور، فإني محبٌ لكل أرض أوتيتي،
ولكل دار فتحت لي بابها، ولكل قوم أحسنوا إليّ، وفي هذا المقام، لا يسعني إلا أن أبوح
بالشكر والعرفان إلى تلك البلاد، وذكرهم بكل خير وبركة وفضل، وأبدأ بأرض الحجاز وهي
كلها أرض مباركة، اختارها الله من بين بقاع الأرض لتكون مهد الرسالة الخاتمة، ومهبط
الوحي، ومنطلق الدعوة، وفيها بيت الله الحرام، ومسجد رسوله عليه الصلاة والسلام، وفيها
قبلة المسلمين، وقد قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] فهي أرض النبوات، وأرض العروبة، وأرض الكرم والمروءة،
فالحجاز منبع الرسالة، ويكفيه فخراً وشرفاً أن فيه وُلد النبي ﷺ العدنان، وفيه نزل القرآن.
والشام أرض الرباط والجهاد، وقد قال النبي ﷺ: «طُوبَىٰ لِلشَّامِ، طُوبَىٰ لِلشَّامِ، فَإِنَّ مَلَائِكَةَ
الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أُجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا».

واليمن أرض الحكمة والإيمان، وأصل العرب، وقد قال النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ
أَرْقُ قُلُوبًا وَأَلْيَنُ أَفْئِدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ».

والعراق أرض الحضارات، وفيها بغداد دار السلام، ومدار العلم والعلماء.

والمغرب العربي أسود الأطلس، أرض الأبطال والمرابطين، وفيه من العلم والأدب ما يجلّ عن
الوصف.

وأرض الصومال والسودان الشقيقة في النيل والعروبة، تجمعهما أواصر النسب والدين واللغة
والحضارة.

وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، فيهم من الفضائل ما لا يخفى، وفيهم العلماء والشعراء والأدباء والثوار الأحرار والشهداء الأبرار.

إن بلاد العرب، على اختلاف أقطارها وتنوع ألوانها، هي جسد واحد، تجمعها لغة واحدة، وتوحدها قبلة واحدة، ويربطها تاريخ مشترك، وتربط بينها الأنساب والأرحام.

وإنني إذ أختم هذه الكلمات وهذه الصفحات من كتاب «سلوى المسافر وأنس الغريب والمهاجر» ختاماً يليق بموطني الأم، وبشكرٍ وعرفانٍ للبلاد التي آوتني فأكرمتني، حتى ما شعرت فيها بالغرابة، وبالأخص وطني الثاني: (الجزائر) التي فيها الأهل والابن والأصهار، فكل الشكر والتقدير والامتنان لهذا البلد الطيب والشعب الكريم، ولا أنسى الكرام من مسلمي المملكة التاييلاندية من تقديري وشكري لهؤلاء الأكارم، وأشكر كل بلد آواني وأكرمني شكر وفيّ يعرف فضلها وقدرها.

وأسأل الله أن يحفظ مصر وسائر بلاد العرب، وأن يديم عليها الأمن والإيمان، والرخاء والاستقرار.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تمّ الصالحات، وبفضله تُختمُ الكتب والمصنفات، وبمنه ورحمته تُطوى الصفحات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم، الذي هاجر في الله وجاهد في الله وصبر على لأواء الغربة صبر العظام، فكانت هجرته فتحًا، وكانت غرته نصرًا، وكان صبره للأمة ذخراً، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغر الميامين، الذين ساروا على دربه واقفوا أثره، فكانوا للغرباء نجومًا وللمسافرين أعلامًا،
أما بعد:

فهذه آخر صفحات هذا الكتاب، الذي سمّيته «سلوى المسافر وأنسُ الغريب والمهاجر»، والذي أودعته ببعض ما جاد به الوحيان من هداية، وما نظقت به العرب من حكمة ورواية، وما فاضت به قلوب الشعراء من عاطفة وشكاية، وما سطرته أيادي السالفين من قصص وعبر بالغة النهاية، اثنان وعشرون فصلًا، طُفنا بها معًا في دروب الغربة ومآهاها، وذُقتنا فيها حلوها ومُرّها، وأخذنا منها زادًا يبلغنا برّ الأمان.

فها أنت ذا، يا أخي الغريب عن الأهل والديار، قد طويت معي آخر صفحة من هذا الكتاب، وقطعت معي شوطًا في دروب الغربة ودروب النفس، ورأيت أنك لست وحدك في هذا الطريق، وأن معك في كل خطوة رفيقًا في الله لا ينام، وسلوى من وحيه لا تنقطع، وعبرة من قصص السابقين لا تحبو، فالغربة التي كنت تراها سجنًا ضيقًا، صارت مدرسةً فسيحة، والوحشة التي كنت تراها ظلامًا دامسًا، صارت خلوةً منيرة، والحنين الذي كنت

تراه ضعفاً، صار وفاءً وقوةً، فأخرج من هذه الكلمات كما يخرج المسافر من رحلته محملاً
بالذخائر، مكللاً بالخيرات، باسم الثغر.

واعلم أن الغربة لم تكن يوماً دار مقام، بل هي محطة زاد، وجسر عبور، وليل ينتظر فجره،
هي مدرسة يتخرج فيها الرجال، وميزان تُوزن فيه المعادن، وبوتقة يُصنّف فيها الذهب، فمن
صبر على لأوائها؛ ظفر بخيرها، ومن عقل درسها؛ ربح آخرته وديناه، فكن فيها غريباً
بجسدك، كريماً بروحك، رسولاً لأمتك.

وأخيراً: أسأل الله الذي ألف بين القلوب بقدرته، وجمع الشتات بحكمته، وسهّل السبل
برحمته، أن يردّ كل غريب إلى أهله سالمًا غانمًا، مأجورًا غير مأزور، وأن يفتح عليهم برزقه
من خزائنه، وأن يحفظهم من كل شر وقتنه في الدين، وأن يجمع شمل كل مشتاق بأحبته
على خير وعافية، وأن يرحم وحشتنا في الدنيا، ويجمعنا في الآخرة مع النبيين والصدّيقين
والشهداء والصالحين في دار لا غربة فيها ولا فراق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد، النبيّ الأميّ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليمًا
كثيرًا إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- (٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- (٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٤) سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- (٥) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ.
- (٦) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ.
- (٧) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.
- (٨) المستدرک علی الصحیحین، الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

- (٩) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ—)، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- (١٠) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ—)، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ.
- (١١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ—)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ.
- (١٢) شرح مقامات الحريري، أبو العباس الشريشي (ت ٦١٩هـ—)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- (١٣) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ—)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- (١٤) مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨هـ—)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- (١٥) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ—)، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٦) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت ٦٨١هـ—)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- (١٧) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ—)، تحقيق مجموعة محققين، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ.
- (١٨) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.
- (١٩) ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة.
- (٢٠) ديوان المتنبي، تحقيق عبد الوهاب عزام، دار الكتاب العربي.
- (٢١) ديوان الإمام الشافعي، جمع وتحقيق محمد عفيف الزعبي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- (٢٢) ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت.
- (٢٣) ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، دار الكتب المصرية.
- (٢٤) ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت.
- (٢٥) ديوان أحمد شوقي (الشوقيات)، دار الكتاب العربي.
- (٢٦) سلسلة: من أدب العرب، أحمد حسن الزيات، مؤسسة الرسالة.

فهرس الكتاب

١	المقدمة
٣	تمهيد الكتاب
٦	الفصل الأول: حب الديار: إيمان الأحرار، وشيمة الأخيار
١٣	الفصل الثاني: زفرة الغريب
١٨	الفصل الثالث: دثار الليل وسلاح الذاكرين
٢٣	الفصل الرابع: مدارج السائرين: منافع السفر
٢٦	الفصل الخامس: التَّيْلُ فِي السَّيْرِ: حكايات من رحلات الأئمة
٣٠	الفصل السادس: طعام الغربة: طعام الكسب الحلال
٣٥	الفصل السابع: مائدة الثقافات: وجوه الدنيا المتعددة
٣٨	الفصل الثامن: لغة الغربة
٤٣	الفصل التاسع: دواء الكآبة في ضوء التجارب
٤٦	الفصل العاشر: ظِلُّ الْوَحْدَةِ: عن داء العزلة ودوائه
٥١	الفصل الحادي عشر: سند الغربة: رفيق الدرب وبلسم التعب
٥٦	الفاصل الثاني عشر: جليس لا يمل: (الأنيس الصامت)
٥٨	الفصل الثالث عشر: طَيْفُ الذِّكْرِ: روائح الدار وألوانها

٦٢	الفصل الرابع عشر: بَرِيدُ الدار: ما بين دمعة فرح وانكسار
٦٧	الفصل الخامس عشر: دُيْنُ الغَرِيب: بين توقعات الأهل وحساب الواقع
٧٥	الفصل السادس عشر: غُصْنٌ فِي مَهَبِ الرِّيح: الأهل والولد في ديار الاغتراب
٨١	الفصل السابع عشر: عَثْرَةُ الغَرِيب: حين تخذلك الدنيا وأنت وحدك
٨٦	الفصل الثامن عشر: العائِدُ بالخير كالغيث أصاب
٩١	الفصل التاسع عشر: متى العودة؟ وكيف؟
٩٥	الفصل العشرون: نسمات العودة وفرحة اللقاء
٩٨	الفصل الحادي والعشرون: غَرِيبٌ فِي أَهْلِهِ وداره: حين يصير الوطنُ غُرْبَةً
١١٠	الفصل الثاني والعشرون: حُبٌّ وامتنان
١١٥	خاتمة الكتاب
١١٧	المصادر والمراجع